

**أثر الحروب الصليبية
في العالم العربي
سكانيا - اجتماعيا - سياسيا**

د. قاسم عبده قاسم

مقدمة

يميل غالبية المؤرخين إلى تصوير الحروب الصليبية على أنها العامل الأساسي في التغيرات التي طرأت على أوروبا والشرق منذ القرن الحادي عشر. وفي تصورنا أن الحروب الصليبية كانت تعبيراً عن هذه التطورات والتغيرات التاريخية أكثر من كونها سبباً في حدوثها. فالحروب الصليبية تطور هام في تاريخ العصور الوسطى حقاً؛ بيد أنها كانت في أساسها تعبيراً عن أنماط من التفكير والسلوك في كل من أوروبا والشرق آنذاك. ولا يعني هذا أنه لم تكن لهذه الحروب الطويلة تأثيراتها الإيجابية على مجرى التطور الأوروبي، أو إفرازاتها السلبية على العالم العربي، فإن مثل هذا القول يذهب بنا بعيداً عن الصواب. ولكن هذه التأثيرات لم تكن من القوة بحيث تغير من اتجاه التطور في المجتمع، ونظم الحكم، والاقتصاد، والثقافة بشكل جذري.

ويمكن تفسير ذلك في ضوء الحقيقة القائلة بأن دور المجتمع الأوروبي في هذه الحروب لم يتعدّ دور الظهير المساند للكيان الصليبي الذي نجحت الحملة الأولى في زرعه فوق الأرض العربية، ذلك أنه باستثناء التفاعلات الاجتماعية/الاقتصادية، والسياسية، والفكرية التي أفرزت الحملة الصليبية الأولى، التي كانت بمثابة «خروج ثان كبير» شاركت فيه أوروبا، ظل دور المجتمع الأوروبي محصوراً في نطاق مساندة ودعم الوجود الصليبي في شرق

البحر المتوسط دون أن يتفاعل تفاعلاً حقيقياً مع أحداث هذه الحروب الطويلة المضنية التي كان الوطن العربي هدفها وميدانها.

فمنذ نجحت الحملة الأولى في استيطان بعض أجزاء العالم العربي، تعين على المستوطنين الصليبيين أن يواجهوا حقائق الموقف الذي ألفوا أنفسهم في مواجهته، ولكنهم كانوا في حاجة دائمة إلى دعم ومساندة أوروبا. وطالما كانت مصالح الكيان الصليبي منسجمة متوافقة مع مصالح الظهير الأوربي، استمرت أسباب الوجود والدعم مكفولة بدرجة أو بأخرى للصليبيين. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن حال التشردم والتفكك والصراع الذي عانت منه المنطقة العربية قبل بداية هذه الحروب وأثناءها، قد ساعدت على استمرار وجود الكيان الصليبي وصموده. وكلما كان الجسد الصليبي يتعرض لضربات المسلمين كان رد الفعل الأوربي يجيء على شكل جيوش وهجرات جديدة تدعم الوجود اللاتيني تحت سماء الشرق. وحين بدأت التطورات التي تعرض لها المجتمع الأوربي طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تبلور نفسها، اختلفت مصالح الظهير الأوربي عن مصالح الصليبيين، وفشلت البابوية في إثارة حماسة أوروبا من جديد. وبدأت جرثومة القناء تعمل عملها في الجسد الصليبي الذي احتواها منذ البداية، وانتهت المواجهة الطويلة المرهقة بانتصار العالم العربي الذي استنفد موارده، أو كاد، في الصراع ضد الوجود الصليبي.

وعلى الجانب الآخر كان العالم العربي هو مسرح هذه الظاهرة التاريخية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان. وبطبيعة الحال كان تأثير الحروب الصليبية على العالم العربي الإسلامي أكبر بكثير من تأثيرها على أوروبا. إذ كانت المنطقة العربية هي هدف هذه الغزوة التي ارتدى رجالها مسح الصليب، وعلى الأرض العربية في بلاد الشام وأعالي العراق قام الوجود الصليبي، كما تعرضت مناطق عربية أخرى في مصر وشمال أفريقيا والبحر

الأحمر لهجمات الصليبيين. وطوال حوالي مائتي سنة خاض العرب والمسلمون صراعاً طويلاً للقضاء على الكيان الصليبي فوق الأرض العربية، ثم كان عليهم أن يخوضوا صراعاً آخر ضد بقايا الصليبيين في قبرص ورودس. وقد ترك هذا الصراع الطويل آثاره السلبية على شتى وجوه الحياة في العالم العربي؛ بحيث انتهت الحروب الصليبية وتجلت آثارها التي قادت العالم العربي في رحلته الطويلة صوب الأفول والغروب لكي يسقط في براثن السيطرة العثمانية بعد قرنين من الزمان.

لقد كانت الحروب الصليبية حروباً عسكرية ومواجهة حضارية طويلة ومرهقة، كما أنها حدثت في وقت كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية قد وصلت إلى أقصى مراحل تطورها وبدأت قوتها الإبداعية تنحجر وتخفت، كما كان العالم العربي الإسلامي يعاني من فوضى التششت والنزاع التي أنشبت مغالبها في أطرافه (وهذا هو في تصورنا أهم أسباب انتصار الحملة الأولى وبقاء الوجود الصليبي). وفي خضم الصراع ضد الصليبيين تجلت عوامل الضعف الكامنة في العالم العربي. وإذا لم تكن الحروب الصليبية هي السبب في توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها في العصور الوسطى، فإنها كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الإبداعية في هذه الحضارة وتعطيلها بحيث كانت إفرازاتها السلبية على شتى المستويات إيداناً بمغيب شمس هذه الحضارة.

إن الحوادث والأفكار المعقدة المتشابكة التي أدت إلى ميلاد الحركة الصليبية كظاهرة تاريخية، وما طرحه المؤرخون من تفسيرات لأسباب هذه الحروب ونتائجها، تضع أمام المهتمين بدراسة التاريخ مثلاً فذاً عن مدى ما يمكن أن ينتج عن التغيرات الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية من استجابات. كما تدلنا على ما يمكن أن يحدثه الهجوم الخارجي على حضارة فقدت قوتها الإبداعية من تأثيرات مدمرة.

ففي أوروبا كانت دعوة البابا أوربان الثاني Urban II في كليرمون Clermont بجنوب فرنسا في نوفمبر سنة ١٠٩٥م، تطرح أمام المجتمع الأوربي الذي مزقته الانقسامات، وأضتته التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في مرحلة غموه الاقطاعي، هدفاً عاماً أمكن لهذا المجتمع أن يعبر عن نفسه من خلاله. أما في الشرق العربي الإسلامي، فكانت الاستجابة للتحدى الذي فرضه الهجوم الصليبي غريبة ومثيرة حقاً؛ إذ تقلبت ما بين الشلل والركود والتشردم في مواجهة الجيوش والمستوطنين الصليبيين، وعدم إدراك حقيقة هذا الغزو، إلى المقاومة، ثم الهجوم المضاد منذ «زنكي» حتى «صلاح الدين»، وبعدها فترة أخرى من التراجع والتقهر حتى تمكنت سلطنة المماليك في مصر والشام من القضاء على الوجود الصليبي في أخريات القرن الثالث عشر.

كانت استجابة العالم العربي الإسلامي تعبيراً عن واقع حاله. فالحضارات لا تسقط بسبب هجوم خارجي قط، ولا بد أن تكون الأحوال الداخلية منهارة بالقدر الذي يمكن العدو الخارجي من تحقيق هدفه. وهذه المقولة تنسحب أيضاً على العالم العربي عشية الحروب الصليبية. إذ أن بداية هذه الأحداث وقعت في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي، وهو القرن الذي شهد من عدم استقرار المنطقة العربية سياسياً واقتصادياً ما كان من أهم عوامل نجاح الصليبيين في حملتهم الأولى. لقد كانت المنطقة موزعة بين عدة قوى سياسية متنافسة متخاصمة، وكانت الحروب التي جرت في العقد السابق على الحملة الصليبية بين إمارات حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وغيرها من إمارات شمال الشام، تمثل ميراً هائلاً من الحقد والمرارة والشك فيما بينها حالت دون اتحادها في عمل مشترك ضد الصليبيين، على الرغم من خضوعها جميعاً للخلافة العباسية في بغداد. فضلاً عن أن الهوة الفاصلة بين هذه الإمارات الشمالية المتحاربة، والجنوبية الإسلامية، كانت عميقة بحيث أعاق العمل المشترك ردهاً من الزمان.

وكانت مصر، وهي القوة العظمى في العالم العربي الإسلامي، خاضعة لحكم الخلافة الفاطمية الشيعية، كما كانت المنافس القوي لسوريا والعراق على المستوى الديني، والاقتصادي، والسياسي. وانبرت كل من الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة العباسية في بغداد تتهم الأخرى باغتصاب السلطة والخروج على الدين.

وعلى الرغم من ذلك، فإن العالم العربي الإسلامي لم يكن قد دخل بعد في منحى التدهور الحاد والعميق، إذ كان المستقبل لا يزال ينبؤ له بعضاً من أعظم إنجازاته العسكرية والفكرية، وعلى الصعيد الاقتصادي كان التاجر المسلم ما يزال هو صاحب السيطرة في عالم البحر المتوسط. بيد أن أعظم أيام العرب كانت قد ولت، كما أن القوة الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية كانت قد بدأت تخبو. وكانت هذه النقائص التي شابت الحضارة العربية في القرن الحادي عشر، من أسباب إخفاق العرب في منع القوى الأوروبية من التوغل في عالم البحر المتوسط آنذاك؛ كما كانت من أهم عوامل نجاح الحملة الصليبية الأولى التي لم يكن انتصارها تعبيراً عن واقع الحال وميزان القوى في تلك الفترة التاريخية.

هكذا، إذن، يتعين علينا أن نحاول رصد الإفرازات والآثار التي ترتبت على الغزو الصليبي والمواجهة بين العرب والصليبيين؛ سواء على المستوى الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو السياسي، أو الثقافي. بيد أنه ينبغي علينا، بداية، أن نحاول فهم مجموعة العوامل والدوافع التي أدت إلى خروج الجماهير الأوروبية في الحملات الصليبية، دون أن نخوض في تفاصيل هذه العوامل والدوافع. لقد أخذ الناس في أوروبا شارة الصليب تدفعهم بذلك مجموعة متنوعة من الدوافع والأسباب، وإذا كانت المثالية والرغبة في الحصول على الأراضي، والبحث عن المجد الشخصي هي التي حفزت أبناء الطبقات العليا؛ فإن الظروف الاجتماعية القاهرة المحيطة هي التي دفعت

بالكثيرين من أبناء الطبقات الدنيا في أوروبا إلى المحرقة صوب الشرق، بمباركة الكنيسة والبابوية، بحثاً عن تلك الأرض «التي تفيض باللبن والعسل». ولأن أحلام المقيهورين في أوروبا العصور الوسطى لم تكن تتحقق سوى في القليل النادر، فإنهم انطلقوا في هذا السبيل الوعر دون أن يعبأوا بمخاطر الطريق الطويل إلى الأرض المقدسة، أو بما ينتظرهم على ترابها من أهوال ومشاق. ذلك أن شيئاً لم يكن ينتظرهم في أوروبا سوى الموت جوعاً وقهراً تحت سيطرة أسيادهم الاقطاعيين المتحاربين على الدوام. أما في الأرض المقدسة، فيما وراء البحر، فهناك أمل كان يجذبهم إلى إمكان تحقيق ظروف معيشية أفضل، بغض النظر عن الوعد الذي بذله البابا لهم بالخلاص في الحياة الأخرى. وجاءت الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين خير برهان على هذا (عن الحملة الشعبية أنظر:

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum, Editée et traduit par Louis Brehier, Paris 1964, pp. 7-9, pp. 11-15; Alexiade, par Anne Connéne, Texte établi et traduit par Bernard Loib, 3 Tons. Les Belles Lettres, Paris 1967, pp. 208-209 sq.;

أنظر الدراسات التي أجريت حول هذه الحملة في :

Ernle, Bradford, The Sword and The Scimiter-The Saga of the Crusaders, London 1974, pp. 30-39; The British Quarterly Review, August 1853, «The Crusades as described by The Crusaders», pp. 63-101;

وعن هذه الحملة في الشعر الصليبي أنظر:

(La Chanson d'Antioche, pp.154-155.

لقد كانت دوافع الذين قبلوا المشاركة في هذه «الحرب المقدسة» مزيجاً غريباً ومثيراً من العوامل والأسباب والدوافع. كما كانت، في الوقت نفسه، تعبيراً عن حال أوروبا عشية الحملة الصليبية. والواقع أننا لا يمكن أن ننكر وجود العامل الديني بشكل أو بآخر؛ بيد أن هذا العامل كان تعبيراً عن تدين عاطفي تشوبه الخرافات والاعتقاد في المعجزات والحوارق، ويقوم على

أساس من التعصب الجاهل. ذلك أن الجور الفكري الذي سرت فيه الدعوة إلى شن الحرب ضد المسلمين كان يضطرم بالدعاية المسعورة التي أذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين، وطقق المبشرون الشعييون والنسك والمنتبشون من أمثال «بطرس الناسك»، و«التر المفلس» يوغرون صدور الجماهير ويزرعون في حناياها الرغبة في قتل أولئك المسلمين الذين شاعت عنهم القصص المرعبة التي اهتمتهم بتدمير الكنائس، وقتل المسيحيين، وتعذيبهم. ولا شك في أن البعض قد أخذوا شارة الصليب أملاً في خلاص أرواحهم. إلا أن الفرسان الجوعى للأرض، وأبناء الأسر الإقطاعية الصغار الذين لم يكن من حقهم وراثة الإقطاعات، قد انضموا إلى الحملة الصليبية، يحدوهم الأمل في أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التي عجزوا عن تحقيقها في بلادهم. وقد لعب البابا أوربان الثاني على أوتار هذا الأمل بشكل صريح في خطبته التي ألقاها في كليرمون بجنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ (أنظر نص الخطبة كما أوردها المؤرخون الصليبيون المعاصرون في مجموعة الحروب الصليبية:

Recueil des Historiens de Croisades, Documents Occidentaux, RHC, occ. فوشيه دي شارتر (III, 727-728)، وروبير الراهب (III, 770) وبلدريك (IV, 16). فقد أشار البابا إلى حالة الجوع إلى الأرض التي باتت فرنسا وأوروبا الغربية تعاني منها عشية الحروب الصليبية).

والواقع أن غروب شمس القرن الحادي عشر الميلادي جاء متوافقاً مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الإقطاعية في غرب أوروبا عامة، وفي فرنسا على وجه الخصوص. وقد أدى ذلك إلى قيام نمط بدائي من التوازن السياسي في أوروبا الأولى. (عن هذا الموضوع أنظر نورمان ف. كاتنور، التاريخ الوسيط، ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم، دار المعارف ١٩٨١، ص ٣٤٧ - ٣٥٥). وهو ما يعني بالضرورة أن فرصة الأمراء والفرسان

الإقطاعيين للغزو داخل أرض بلادهم كانت ضئيلة بالفعل؛ ومن ثم كان اشتراكهم في الجرب المقدسة فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم.

أما النورمان في جنوب إيطاليا فقد تحركوا للمساهمة في الحملة الصليبية بدافع من كراهيتهم العميقة للدولة البيزنطية ورغبتهم في انتزاع الممتلكات على حسابها. إذ كان النورمان يرون في هذه الحملة عملاً عسكرياً موجهاً ضد البيزنطيين أكثر منها حرباً ضد المسلمين؛ بيد أن سبب هذه الحماسة كان نابعاً من المصالح التجارية لكل من جنوا، وبيزا والبندقية، ولم يكن نابعاً من تقوى الإيطاليين أو رغبتهم في الخلاص. ذلك أن هذه المدن التجارية كانت تأمل في الحصول على موانئ على شرق البحر المتوسط لضرب السيطرة الإسلامية على التجارة في هذا البحر، وقد تمكن أبناء الجمهوريات الإيطالية من تحقيق مآربهم بعد نجاح الحملة الأولى على نحو ما سنرى في حديثنا عن التأثير الاقتصادي للحروب الصليبية.

وعلى الصعيد الشعبي كان تأثير الدعوة إلى الحرب المقدسة مثيراً بالفعل. وفي تصورنا أنه في مجتمع له ظروف الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر الميلادي (حيث تسود مظاهر الجهل وتنفش الأمية) كان لا بد أن تكون الاستجابة لمثل هذه الدعوة قوية، بل وهستيرية، وهو ما حدث فعلاً. (عن أحوال أوربا قبيل الحروب الصليبية. أنظر:

Kenneth M. Setton, A hist. of the Crusades, Vol.I, P. XX; L'An Mille-Œuvres de: Luitprand, Raoul Glaber, Ademar de Chabannes, Adolberton, et Helgaud, Réunies, traduites et présentées par: Edmond Pognon, France 1947; Painter, S., A History of the Middle Ages, England 1953, pp. 118-22).

هكذا، إذن، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورها في الاستجابة السريعة المذهلة للدعوة التي وجهها البابا إلى الجماهير الأوربية. ومن ناحية أخرى، كانت هذه العوامل نفسها هي التي حكمت علاقات

الكيان الصليبي بالعالم العربي؛ وبذلك حددت شكل التأثيرات التي تركها الصراع ضد الوجود الصليبي على العالم العربي الإسلامي.

لقد كان الاستعمار الاستيطاني هو أبرز أهداف الحروب الصليبية. وحين تحقق هذا الهدف فرضت آثاره السلبية نتائجها على العالم العربي الإسلامي. فعلى الصعيد الاجتماعي صحت الحملة الصليبية الأولى عمليات تهجير وهجرة لعدد كبير من السكان، كما حدث تفريغ سكاني لبعض المناطق، وهرب سكان المناطق التي تعرضت للعدوان إلى مناطق أخرى كانت أكثر أمناً. وهو الأمر الذي أدى إلى تغيير نسبي في البناء الديموجرافي للمناطق التي نالها العدوان الصليبي، كما حدث تغير كبير في علاقات الفئات الاجتماعية داخل هذه المنطقة، إذ تحولت الأقليات إلى أكثريات في المناطق الصليبية، كما ترك العدوان أثره على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين عامة، وبعض طوائفهم خاصة، فضلاً عن تخلخل البناء الطبقي فيما يمكن أن نسميه بالحراك الاجتماعي الهابط لبعض الشرائح الاجتماعية، والحراك الاجتماعي الصاعد للبعض الآخر. ولنبدأ القصة من أولها.

كانت أول إمارة صليبية شاهدها الغرب فوق الأرض العربية هي إمارة «الرها» التي استولى عليها «بلدوين» ليقم بذلك شعار بيت اللورين بين نهري دجلة والفرات. وكان على سكانها من المسيحيين الشرقيين، وغالبيتهم من الأرمن، أن يفسحوا مكاناً للمهاجرين اللاتين الذين انضموا إلى الخليج السكاني المكون من المسلمين والسوريين والنساطرة والأرمن، وتحول السكان الأصليون إلى مواطنين من الدرجة الثانية. وكان المسلمون أقلية في هذه المدينة التي كان يحكمها أمير أرمني يدين بالتبعية للدولة البيزنطية التي كانت قد انتزعتها من الحكم الإسلامي الذي استمر ثلاثة قرون، وهكذا، فإن السيادة البيزنطية التي استمرت طوال ما يقرب من مائة عام، كانت السبب

الأساسي في بقاء قطاعات كبيرة من سكان هذه المنطقة على مسيحياتهم، وربما كانت سبباً في ارتداد بعض السكان عن الإسلام.

وفي سنة ١٠٩٨ تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أنطاكية بفضل خيانة الأرمن. وفي أنطاكية بدأ الإفلاس الإيديولوجي للحركة الصليبية يكشف عن نفسه في وضوح. فحين توقفت الحرب تجسد هذا الإفلاس في بؤرة شريرة من الدسائس والصراعات والمؤامرات التي امتدت خيوطها بين القادة الصليبيين؛ وفي خضم هذا الصراع تفرق الجيش الصليبي وأخذ فرسانه وقادته يغيرون على المناطق الريفية المجاورة بهدف انتزاع أملاك خاصة لكل منهم. وهرب الفلاحون من قراهم التي كانت هدفاً سهل المنال للصليبيين، ولما كانت المقاومة المحلية ضعيفة، خضعت القرى والقلع المجاورة للصليبيين الذين استطابوا العيش في هذه المنطقة، ولكن ثورة الفقراء، الذين كانوا ما يزالون يحلمون بتحقيق طموحاتهم، أجبرت الجيوش الصليبية على التقدم صوب بيت المقدس.

(أنظر عن نشاط الصليبيين في المناطق المحيطة بأنطاكية: ابن العديم، زبدة الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٥١م، ج ٢، ص ١٣٢؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨م، ص ١٣٤، ص ١٣٥ أنظر أيضاً Raymond d'Aigles, RHC, Hist. Occ. III, 245 وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية - ط. ثانية ١٩٧١م، ج ١، ص ١٩٣ - ١٩٤).

وأعقبت سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين مذبحة فظيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة فضلاً عن سكانها غير المحاربين من المسلمين واليهود. وفاض الدم في الشوارع، كما ظلت أكوام الجثث مصدر إزعاج في شوارع القدس فترة طويلة. وبعد المذبحة الرهيبة، توجه جودفري البويوني

يتبعه الصليبيون في أعداد متزايدة، بعد أن رووا ظمأهم من دماء ضحاياهم من النساء والأطفال وغير المحاربين، إلى الضريح المقدس. وفي هذا الجو الموحش الذي يلفه الصمت الرهيب، وتغلغه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة، وبينما كانت دموع الفرح تسيل على وجوه الصليبيين المرهقة، ترددت في أرجاء كنيسة القيامة عبارة أطلقها الصليبيون هي Te Deum laudamus، أي نحمدك يا الله. وكانت هذه هي بداية الوجود الصليبي على الأرض العربية.

ومع بزوغ شمس اليوم الجديد بدأت المذابح مرة أخرى، واستمر الحال كذلك على مدى أسبوع كامل. وفي هذه الأثناء، تم إخلاء المدينة من جميع سكانها القدامى ووجدت المساكن الخالية لنفسها سكاناً جديداً، وفتحت الكنائس للعبادة. وهكذا صارت القدس مدينة لاتينية، تحكمها قوانين وظروف جديدة توافق سكانها الجدد القادمين من وراء البحار.

(عن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس والمذبحة التي أعقبت ذلك
أنظر:

Gesta Francorum (The English translation by Rosalind Hill, London 1962), pp. 90-93; Anne Connéne, Alexiade (Trad. Française), pp.29-32;

أنظر أيضاً في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ميخائيل السورباني
Matthieu d'Edesse، وكذلك متى الرهاوي RHC, Doc. Arm., III, p.184
RHC., Doc.Arm.I, p. 45sq.
ج ١٠، حوادث سنة ٤٩٢هـ؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق،
ص ١٣٦ - ص ١٣٧؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٧.

بعد سقوط بيت المقدس بأيام، اجتمع الصليبيون لمناقشة مشاكلهم،
ولدفن الضحايا الذين كانت جثثهم مكدسة في طرقات المدينة، وتفوح منها
رائحة مخيفة. بيد أن أهم ما كان يشغل بال القادة هي حاجتهم إلى نوع من

الحكومة المنظمة. ولا تمدنا المصادر التاريخية بما يشي بأن الصليبيين قد فكروا في مستقبل المناطق التي سيستولون عليها؛ إذ كان الغرب الأوربي معتاداً على التبدل الدائم والمستمر في الضياع الإقطاعية، دونما مساس بالنظام الزراعي الأساسي. ولم يكن الفرنج ليفهموا المشاكل الخاصة ببلاد الشام، كما أنه لم يكن بينهم من لديه الخبرة بالمستوطنات التي تضم عناصر جنسية ودينية مختلطة، باستثناء تنكرد Tancred النورماني. وكان الصليبيون يرغبون في اختيار حاكم علماني من بين زعمائهم الذين كانوا يمثلون مجموعة متضاربة المصالح، متفرقة الأهواء. وأخيراً تم الاتفاق على اختيار جودفري البويوني بلقب «حامي الضريح المقدس».

وهكذا، فإنه نتيجة للنصر الذي أحرزته الحملة الأولى، قامت في الأرض المقدسة عاصمة مسيحية، كما قامت عدة مستوطنات فرنجية صغيرة في الرها وبلاد النهرين، وأنطاكية، وسوريا، فضلاً عن بعض مدن الشاطئ اللبناني. وكان من الضروري أن يتم ربط هذه المراكز القليلة المتباعدة حتى يمكن بناء دولة محكمة البنيان تتميز بوحدة أراضيها. وفي بطن عنيد تحولت سيطرة الصليبيين على بعض المدن القليلة المتناثرة، إلى سيادة ثابتة على أقاليم متصلة أخذت في التوسع دون أدنى مقاومة على مدى جيلين كاملين. ومن البديهي أن تأثير قيام هذه الكيانات الصليبية على الشكل الديموجرافي للمناطق التي شهدت الغزو، كان عنيفاً. فقد أثر عدد كبير من الصليبيين أن يبقوا في الشرق حيث كان عليهم تحمل مهام الإمارة الاستعمارية الاستيطانية. ولأنهم كانوا أقل كثيراً، في عددهم، من السكان الأصليين، فقد حاولوا قدر الطاقة، أن يشجعوا الهجرة من أوروبا لتدعيم وجودهم. وكان الحجاج والتجار والمحاربون والمهاجرون يفدون من أوروبا في موجات كبيرة أو صغيرة إلى الوطن الصليبي فيما وراء البحار Outremer. ولقد حاول بارونات وفرسان الصليبيين، في بداية الأمر، أن يحافظوا على ما نجحوا في الاستيلاء عليه دون الاستعانة بالغرب الأوربي، ولكن جسداً

غريباً لا يمكن أن يعيش دون أن يجد لنفسه السند من الخارج. وهكذا كان على أوروبا أن تقوم بدور الظهير الذي يرمى الكيان الصليبي ويحميه، باعتباره كياناً أوروبياً يحيا تحت سماء الشرق. وعلى مدى ما يقرب من قرنين، منذ سنة ١٠٩٦م حتى سنة ١٢٩١م، توالى موجات من الأوربيين على حوض البحر المتوسط الشرقي بهدف الحفاظ على الأراضي التي استولوا عليها من المسلمين. وكانوا يبعثون بعشرات الألوف: حجاجاً، وجنوداً مسلحين، في مجموعات صغيرة يقودها أمراء إقطاعيون، أو على شكل جيوش ضخمة يتولى قيادتها أكبر حكام أوروبا في ذلك الزمان. وهو ما يعني أن الحملات السبع الشهيرات لا تعبر عن واقع الحال. إذ كانت موجات المهاجرين تشبه موجات البحر العاتية أحياناً، كما كانت أشبه بالتقاطر الهادئ المستمر أحياناً أخرى. وفي طيات هذه وتلك، وفد الحجاج والمحاربون، والقراصنة وطريدو القانون، والتجار ورجال الدين، والنبلاء الجوعى للأرض، والحالمون والأفاقون، الذين اتخذوا جميعاً من الشرق العجيب هدفاً ومقصداً. وكان لهذه الهجرات تأثيرها على البناء السكاني من حيث خلخلته، وتغيير ملامحه.

لقد ظهرت في إطار الوجود الأوربي على تراب الشرق العربي أربعة كيانات سياسية صليبية. إذ كانت إمارة الرها هي دولة الصليبيين في أقصى الشمال في أعالي دجلة والفرات، تضم خليطاً من السكان المسلمين والمسيحيين الشرقيين، ولكن علاقات القوى الاجتماعية تغيرت فيها نتيجة قدوم اللاتين لسكانها ولكي يكونوا فيها الطبقة الحاكمة. بيد أن المعلومات المتاحة عن إمارة الرها الصليبية، لا تماثل معلوماتنا عن الكيانات الصليبية الأخرى، وربما يكون السبب في ذلك راجعاً إلى حقيقة أنها كانت أول مدينة كبرى يستردها المسلمون في وقت مبكر.

وفي أنطاكية كان السكان خليطاً مماثلاً. بيد أن المصادر لا تدلنا على

معرفة ما إذا كان المسلمون أغلبية أم أقلية. وكانت إمارة أنطاكية منطقة جذب للنورمان في جنوب إيطاليا وصقلية، وللنورمان في فرنسا وأنجلترا. ولكن ذلك لا يعني أن النورمان كانوا هم العنصر الوحيد من الأوربيين بين سكان أنطاكية، وإغما يغني أنهم كانوا يشكلون غالبية بين السكان الأوربيين.

وفي طرابلس، أصغر الكيانات السياسية الصليبية، كانت غالبية السكان من المسلمين، كما كان المسيحيون الشرقيون يمثلون قسماً هاماً من السكان. ومن بين هؤلاء، بجميع طوائفهم، كان الموارنة هم الطائفة التي قربها الصليبيون. ولأن حاكم هذه الإمارة كان هوريون السانجيلي، كونت تولوز وماركيز البروفانس، فقد صارت هذه المنطقة ملاذاً لأولئك القادمين من جبال البرينيس وحوض الرون الأدنى وقطالونيا، ليستقروا تحت سماء الشرق العربي.

كانت مملكة بيت المقدس اللاتينية هي الكيان السياسي الرابع تحت حكم آل بويون Bouillion الذين ينتمون إلى حوض الرون الأدنى. وكان لهذه المملكة زعامة الوجود الصليبي بأسره. كذلك كان سكان المملكة أكثر تنوعاً من سكان المناطق الصليبية في الشمال؛ فقد عاش بها المسلمون والمسيحيون، واليهود والسامرة. ولكن هذا الكلام لا ينسحب على مدينة القدس ذاتها. فحين امتلك الصليبيون المدينة المقدسة، كانت مدينة خاوية تقريباً. وعلى أية حال فإنه لم يسمح للمسلمين أو اليهود بالعودة إلى المدينة. أما بالنسبة للمسيحيين، فقد صدر مرسوم يقضي لأي مسيحي أقام بمنزل عاماً ويوماً بأن يمتلك هذا المنزل. وسار بلدوين الأول خطوات أبعد في هذا السبيل خلال العام الأخير من حكمه؛ إذ يقول وليم الصوري إن الملك «... رأى أن عدد الناس في بلدنا قليل للغاية، وأنهم لا يكادون يملأون شارعاً واحداً، فأقدم على إتاحة الفرصة لسكان القرى المسيحية المجاورة

لكي يجيئوا للإستقرار في المدينة بشروط معقولة... وجاء هؤلاء بزوجاتهم وأطفالهم زرافات ووحدانا، وبكامل أمتعتهم...» لقد كانت هذه هجرة أساسية، وكانت هي الأساس الذي قام عليه التركيب السكاني لمدينة القدس في ظل الحكم الصليبي.

(عن هذا الموضوع أنظر:

William of Tyre (The English Translation), XI, 27 J.Prawer «The settlement of the Latins in Jerusalem», in Speculum, Vol.XXVII, pp. 491-503»; Bradford, The Saga, pp. 88-89; Le Duc de Castries, La Conquête de la Terre Sainte par Les Croisés, Paris 1973, pp. 83-s.q.; The Chronicles of the First Crusade (ed. Peters), pp. 7-9; T.S.R. Boase, Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, London 1971, pp. 20-23, 41-42).

كان ما حدث في المدينة المقدسة مثلاً لما حدث في غيرها من الأماكن التي استولى عليها الصليبيون؛ فبعد أن ظلت القدس خاضعة للسيادة الإسلامية طوال أربعة قرون، حل الصليب محل الهلال، وتحولت المساجد إلى كنائس، وأزيل المحراب، وحرم المسلمون واليهود من سكنى المدينة. ولكن الصورة لم تكن صارخة بهذا الشكل خارج القدس. بيد أن جبهة السكان المسيحيين في المدينة لم تبد من دلائل النمو والزيادة شيئاً، وإنما على العكس كانت الهجرة منها إلى مدن أخرى، أو حتى إلى أوروبا، أمراً واضحاً بسبب عدم كفاية مواردها الاقتصادية وصعوبة الظروف المعيشية فيها. وبعد محاولة بلدوين الأول التي أشرنا إليها، أخذ رجال الدين المبادرة في نفس الاتجاه لتنمية الموارد البشرية للمدينة. وقد أصدر بلدوين الثاني في سنة ١١٢٠م، بناء على مساعاهم، قراراً بإعفاء المواد الغذائية الواردة للمدينة من الضرائب التي كانت تدفع على مدخل القدس.

أما في سائر أنحاء المملكة، فكانت العناصر الأوربية أكثر تنوعاً منها في الشمال، وذلك بسبب جاذبية الأماكن المقدسة، ومحاولات حكام المملكة المستمرة لجذب السكان المسيحيين. وفي القرن الثاني عشر كانت شوارع

القدس تبدو عالماً مصغر الأشكال والألوان لأوروبا والشرق المسيحي آنذاك. وقد زار الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي مدينة القدس قبل سقوطها في أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين، وذكر أنها تضم عناصر سكانية عديدة من اليعاقبة والأرمن، واليونان والجورجيين، والفرننج وغيرهم من شتى الأجناس (Benjamin, pp. 68-73). وحين استعاد المسلمون القدس انتقلت هذه الصورة إلى عكا خلال القرن الثالث عشر (يوشع براور، عالم الصليبيين ترجمة د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن، دار المعارف ١٩٨١م، ص ١١٨ - ص ١٢٣).

ولكن غالبية المستوطنين كانت من الفرنسيين، وهذا هو ما حدا مؤرخي المسلمين أن يطلقوا على الصليبيين جميعاً اسم الفرنج. بيد أن البعض يبالغ في قيمة الدور الفرنسي في الحروب الصليبية ويذهب إلى أن الرب قد اختار مثل هذا الدور للفرنسيين لتنفيذ مشيئته. والواقع أن الظروف التاريخية الموضوعية، هي التي فرضت مثل هذا الدور البارز للفرنسيين في الحروب الصليبية (فقد كان الألمان في صراع ضد البابا حول مشكلة التقليد العلماني عشية الحروب الصليبية. وفي إنجلترا كان موقف وليم الثاني مزعزعاً لأن بلاده كانت منقسمة بفعل الخصومات المتزايدة في الداخل. أما النبلاء الإيطاليون فلم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة النضج التي تكفل إشراكهم في الحملة. وعبر جبال البرانس كان الأسبان الثورطون في حروبهم الاستردادية reconquista ضد مسلمي الأندلس، في وضع لا يسمح لهم بالمشاركة؛ إذ كانت هزيمتهم في معركة الزلاقة ما تزال ماثلة أمامهم، كما أنهم كانوا يخشون أن يعاود المرابطون الهجوم عليهم. ولم تكن شعوب الشمال الاسكندنافية القليلة العدد لتمثل مورداً هاماً من موارد القوة البشرية اللازمة لهذه الحملة). ومن ثم كان الفرنسيون يشكلون تسعين بالمائة تقريباً من قوات الحملة الصليبية الأولى.

Lewis A.M. Sumberg, La Chanson d'Antioche-étude historique et litter-

aire Paris 1968, pp. 144-145).

وقد انعكس هذا الموقف على نسبة الفرنسيين في عدد السكان في المستوطنات الصليبية حيث كانوا هم الغالبية.

ومن ناحية أخرى، كان لنجاح الحملة الصليبية الأولى أثره في تأجيج الحماسة في صدور مسيحيي أوروبا. إذ كان الناس يستمعون في شغف إلى أحاديث المقاتلين العائدين؛ ولا بد أن أحاديثهم كانت تركز على حاجات المناطق المسيحية الجديدة، وعلى الفرص المتاحة هناك. ومن لمبارديا وفرنسا وغيرهما من مناطق أوروبا، بدأت جماعات الصليبيين تشق طريقها صوب الشرق. وعلى الرغم من أن الأعداد غير مؤكدة، فإن المصادر التاريخية تكشف بوضوح عن أن أعداد النازحين من الغرب الأوروبي، عقب نجاح الحملة الأولى، كانت مساوية تقريباً لأعداد جيوش هذه الحملة، وتؤكد المصادر أن عدداً كبيراً من هؤلاء النازحين كانوا من النساء والأطفال وغير المقاتلين، مما يجعل هذه الحركة هجرة أكثر من كونها حملة عسكرية. وكان هذا بمثابة البداية لذلك الفيض الثابت من المهاجرين الذين كانوا هم المصدر الأساسي لقوة مملكة بيت المقدس اللاتينية والكيانات الصليبية الأخرى. ومن المؤكد أن هذه الهجرات كانت تدفع بالسكان الأصليين من العرب والمسلمين في المناطق الصليبية تجاه المناطق التي بقيت بأيدي المسلمين. وكان وصول كل فوج جديد من الصليبيين يحمل معه مزيداً من المتاعب للسكان الأصليين، لا سيما الفلاحين في المناطق الريفية التي كانت مفتوحة على الدوام أمام أي عدوان، بعكس المدن والقلاع التي نعمت بالحصون والقلاع والأسوار القوية. ذلك أن الصليبيين الجدد كانوا يفدون من أوروبا تدفعهم حاستهم وتعصبهم الصليبي، وكان الفلاحون هم فريستهم السهلة المنال التي كانت تتلقى أولى الضربات من القادمين الجدد باستمرار. وكانت هذه الغارات المتكررة من أسباب تفرغ المناطق الريفية من سكانها الذين كانوا يهربون صوب بلاد أخرى، أو صوب الصحراء

اختلال البناء الديموجرافي. لقد تلقى العالم العربي الإسلامي ضربة مفاجئة أثارت الذعر والهلع في جنباته. وحين اكتشف المسلمون أن الصليبيين جاءوا إلى المنطقة العربية بقصد البقاء، كان على العالم العربي أن يغص بمرارة هذه الحقيقة؛ ولكن العجز التام والشلل الذي حال دون تعبئة الموارد الاقتصادية والديموجرافية الهائلة للوطن العربي على مدى جيلين كاملين، شجع الصليبيين على المضي قدماً لتدعيم فتوحاتهم، ووصلوا بها إلى البحر غرباً والصحراء جنوباً فيما يمكن تسميته بالحدود الطبيعية. وهكذا شاد الغرب المسيحي مستوطناته على الأرض العربية لتعيش قرنين من الزمان في مواجهة القوى العربية الإسلامية.

لقد انقسمت منطقة حوض المتوسط الشرقي إلى أقاليم صليبية وأخرى إسلامية نتيجة للوجود الصليبي، وكان الأثر المباشر لهذا على الصعيد الاجتماعي هو التغير الديموجرافي واختلال علاقات القوى الاجتماعية على النحو الذي كشفت عنه الأمثلة السابقة. وبعبارة أخرى كان للغزوة الصليبية، والمذابح التي واكبتها، أثرها المباشر على التركيب السكاني في المنطقة التي دارت على أرضها رحى المعارك الصليبية. فقد كان لاستيطان الفرنج (بمعنى جميع الشعوب الأوروبية) تحت سماء الشرق، أثره المباشر والعنيف في تغيير البناء السكاني للمناطق التي خضعت لحكم الصليبيين وسيطرتهم. كما أن عمليات الهجرة والتهجير دفعت بجماهير السكان في المناطق التي تعرضت للعدوان، إلى مناطق أخرى آمنة، بحيث اهتز البناء السكاني في مناطق الهجرة بشكل عنيف.

ومن ناحية أخرى، كان للحروب الصليبية أثر ديموجرافي غير مباشر إلى جانب هذا الأثر المباشر. إذ أن العالم العربي قد نهض لمقاومة العدوان الصليبي، بعد أن استوعب الصدمة الأولى، وبدأت الجيوش تغد من جميع أنحاء العالم العربي؛ مصر وبلاد الشام والعراق، فضلاً عن الجنود

والمطوعين الوافدين من المناطق الإسلامية الأخرى، في محاولة لطرد العدو الصليبي والقضاء على الكيان الغريب الذي زرعته الحروب الصليبية على الأرض العربية. وطوال مائتي عام، خرجت جيوش كبيرة، سواء بشكل عام أو في معارك جزئية، وهدفها محاربة الكيان الصليبي. ومما لا شك فيه أن هذه الجيوش الضخمة كانت استنزافاً للموارد البشرية في العالم العربي. حقيقة أن غالبية الجيوش الإسلامية كانت تضم عناصر عسكرية غير عربية، ولكن أفراد هذه الجيوش كانوا يشكلون جزءاً من البنية السكانية في الأقاليم التي خرجت منها. زد على ذلك أن الجيوش في العصور الوسطى، لم تكن تعرف سلاح الخدمات والامدادات الذي يوجد في الجيوش الحديثة، ومن ثم فإن كثيرين من أصحاب الحرف والصناعات كانوا يصبحون الجيوش لتقديم الخدمات، وإقامة الأسواق للجنود؛ فضلاً عن أن المصادر تتحدث كثيراً عن المطوعين الذين كانوا يصبحون الجيوش النظامية، والذين كانت أعدادهم أحياناً تفوق أعداد الجند النظاميين؛ كما أن المناطق التي جرت على أرضها المعارك ضد الصليبيين، سواء في مصر أو بلاد الشام أو أعالي العراق، قد تعرضت لتغيير سلبي في بنائها السكاني، بسبب ما يصحب الحروب عادة من أعمال السلب والنهب واستباحة السكان، وهو الأمر الذي كان طبيعياً في تلك العصور.

وإذا ما حاولنا تتبع الخطوط العريضة لحركة المقاومة العربية الإسلامية ضد الوجود الصليبي، وحاولنا الاستعانة بأرقام الجيوش الإسلامية التي ذكرها المؤرخون، أدركنا مدى تأثير هذه الحروب الطويلة المرهقة على العالم العربي الإسلامي من حيث بنائها السكاني، ومواردها البشرية.

فبعد الاستيلاء الصليبي على بيت المقدس، وصلت الجيوش المصرية بقيادة الأفضل سنة ٤٩٢ هـ، وحين تمت المواجهة «انهزم العسكر المصري إلى جهة عسقلان، ودخل الأفضل إليها وتمكنت سيوف الإفرنج من

المسلمين، فأق التقتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧) وفي سنة ٤٩٤هـ خرجت جيوش سقمان بن ارتق لمهاجمة الصليبيين في الرها وسروج، وجرت مذبحة راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين. لقد قامت مصر بدور ضئيل في قتال الفرنج بعد أن اتضحت حقيقة مقاصدهم، ولكن التدهور الداخلي حال دون فعالية الدور المصري في المقاومة الإسلامية في الأدوار الأولى من الحروب الصليبية، بل إن الجيوش المصرية الكبيرة التي خرجت من مصر في أواخر عهد الدولة الفاطمية، كانت من أهم أسباب تدهور الموارد البشرية المصرية، مما أدى إلى سقوط الخلافة الشيعية في القاهرة في نهاية الأمر.

ولا شك في أن المسلمين لم يكونوا ليدعوا الصليبيين يهأون بالمدينة التي كانت بمثابة درة التاج لدى أصحاب الديانات الثلاث، فالمصادر التاريخية تذكر أن الحرب لم تتوقف ضد الصليبيين منذ أن وطأت أقدامهم الأرض العربية في الشام والعراق. ففي السنوات الأولى جرت معارك ضخمة بين الأتراك السلاجقة والصليبيين وكانت الجيوش الإسلامية تتألف من أعداد ضخمة من الفرسان والمشاة (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧ ؛ Matt., pp. 132-133, 137-139, 143-145).

وعندما وصلت المملكة الصليبية إلى أقصى اتساع لها، بدأ المسلمون يجابهون التحدي الصليبي. ولكن السنوات الخمسين التي أعقبت قيام المملكة اللاتينية في فلسطين، والتي شهدت حركة التوسع الصليبي في كل اتجاه، أثبتت أن الدول والإمارات الإسلامية كانت عاجزة تماماً عن التعاون في خلق جبهة موحدة، كما أثبتت هذه السنوات الخمسون أن مصر، بكل مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية، لم تكن نداً للأوروبيين بسبب حال الضعف التي اعترت الدولة الفاطمية وهي تفتاز منحى التدهور والاضمحلال الذي أودى بها في نهاية الأمر. وبين الحين والحين كانت

الإمارات الإسلامية في بلاد الشام تعقد بعض الاتفاقيات مع بعضها البعض، أو مع مصر، بقصد العمل المشترك. بيد أن هذه التحالفات السريعة كانت لا تلبث أن تنفصم بالسرعة نفسها التي تمت بها.

وعلى الرغم من أن هذا الفشل السياسي في توحيد الجهود العربية الإسلامية إزاء الخطر الصليبي، كان يؤدي إلى مزيد من الاخفاقات العسكرية؛ فإن ما يهمننا أن نشير إليه في هذا المقام، هو أن المعارك الكثيرة التي جرت إبان السنوات الخمسين التي أعقبت قيام مملكة الصليبيين، كانت تستنزف الموارد البشرية لبلاد الشام ومصر (فضلاً عن الموارد الاقتصادية والجهد الثقافي وهو ما نرجىء الحديث عنه إلى حين). وقد أدى هذا في نهاية المطاف، إلى الفشل النهائي على محور دمشق القاهرة في المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين (عن النضال ضد الصليبيين في هذه المرحلة أنظر ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧ - ص ١٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، إبتداء من حوادث سنة ٤٩٢هـ؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٥٥، ص ٢٥٧؛ أنظر أيضاً: Albert d'Aix, RHC, occ. IV, pp. 497 sq.; Matt. pp. 132-145.)

فلم يبدأ رد الفعل الإسلامي من مصر أو من بلاد الشام، وإنما من الموصل. وكان حكام الموصل يدينون بالسوء للسلطان السلجوقي في فارس، كما كانت لهم السيطرة على الإمارات الشامية والعراقية، بل وعلى الخليفة العباسي نفسه في بغداد. وقد حاولوا باسم الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، أن يحصلوا على تعاون الحكام المسلمين المحليين في بلاد الشام، وشنوا عدة هجمات ضد الصليبيين في الرها وأنطاكية، بيد أن نتائج هذه الجهود العسكرية لم تكن مرضية (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٣، ص ١٥٠، ص ١٦٩، ص ١٧٠). وفي سنة ١١١٣ تمكن جيش الموصل بفضل تحالف عسكري كبير، من هزيمة الصليبيين قرب

الجليل، وتمكن المسلمون من حصار القوة العسكرية الكاملة للمملكة الصليبية، ولكن عدم القدرة على الاحتفاظ بجيش كبير العدد، ينتمي أفراده إلى فئات وطوائف غير متجانسة، لفترة أطول من ذلك، حرم المسلمين من إحراز نصر ساحق (ابن القلانسي، ص ١٧٨ - ص ١٨١، ص ١٨٤ - ص ١٨٥).

زمع ذلك فإن شيئاً ما قد بدأ يتغير داخل المعسكر الإسلامي، بفعل النتائج الديموجرافية للغزو الصليبي. وقد جاء هذا التغير من بين جواهر المسلمين الذين أدركوا مدى فداحة الخطر الصليبي من ناحية، وفشل القيادات العربية الإسلامية من ناحية أخرى. فقد أثار تدفق اللاجئين إلى سائر مناطق العالم الإسلامي من فلسطين في أعقاب الغزو الصليبي، مشاعر الاستياء ضد القيادة الإسلامية. وفي البداية، علت أصوات الاستياء والدعوة إلى الجهاد على منابر المساجد في صلاة الجمعة، وسرعان ما حظيت الحركة بتأييد شعبي قوي، لتصبح الدعوة للجهاد ضد الكفار بمثابة صرخة التجمع للقوى العربية الإسلامية، وسطرت الكتب ودبجت الرسائل عن فضل الجهاد والمجاهدين، وعن مكانة بيت المقدس وأهميتها. وفي ظل هذه الحركة تكوّن رأي عام قوي وضاعط على القيادات السياسية في العالم العربي الإسلامي، وقدر لهذه الحركة أن توجه مجرى الأحداث على مدى ما يزيد على قرن ونصف من الزمان.

في ظل هذا البعث الإيديولوجي، ظهر عماد الدين زنكي ليقود حركة المقاومة الإسلامية على محور جديد هو محور الموصل - حلب، الذي حل محل محور القاهرة - دمشق الذي أثبت فشله بسبب الانهيار الداخلي للخلافة الفاطمية والتشرذم والتفكك الذي عانت منه بلاد الشام آنذاك. وقد أخضع عماد الدين زنكي المنطقة ما بين الموصل وحلب لسلطانه، وسرعان ما أضحى أقوى حاكم إسلامي في زمانه، لأنه طوع قوته وسلطانه في خدمة

المطلب الشعبي العام، أي الجهاد ضد الفرنج. فقد قامت المدارس والعلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخ للرأي العام، كان من المتعذر في ظله أن يتجنب الأمراء الشاميون المواجهة المباشرة للتحدي الذي فرضه الوجود الصليبي. وشيئاً فشيئاً نجح عماد الدين زنكي في التغلب على النعرات الانعزالية في كل من الشام والعراق. وفي سنة ١١٤٤م شن زنكي هجوماً ناجحاً على الرها واستولى على عاصمة أول إمارة صليبية قامت على تراب الشرق العربي الإسلامي (Michel, pp. 325-344; Chabot, pp. 170-172).

كان سقوط الرها نذير شؤم وصدمة نفسية مؤلة للصليبيين؛ لأنه كان يعني أن أراضي إمارة أنطاكية، شمالي غرب الرها، ستكون هي الهدف التالي للمسلمين، وفي سنة ١١٤٦م جرت محاولة فاشلة من قبل الصليبيين لاستعادة الرها، ولكن نور الدين محمود خليفة زنكي ووريثه تمكن من استرجاعها. وبذلك انتهى الضغط الصليبي على مناطق أعالي الفرات. بيد أن نور الدين لم يكن قادراً على شن هجوم حاسم ضد الصليبيين، لأن سيطرته على محور الموصل - حلب لم تكن قد رسخت بعد. كما أن حكام دمشق كانوا عقبة كؤوداً في سبيل جهوده لتوحيد الجبهة الإسلامية. فقد كانت دمشق قد توصلت إلى حال من التعايش السلمي مع الصليبيين، واستنجد حكامها مرات ومرات بالصليبيين في مواجهة قوات زنكي ونور الدين من بعده. ومن ناحية أخرى لم يكن بمقدور نور الدين أن يهاجم المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره إمارة دمشق التي لا يثق بحكامها.

ومن الغريب أن الصليبيين هم الذين قاموا بتقويض هذا الترتيب الذي كان يناسبهم تماماً. فقد جاءت الحملة الصليبية الثانية من أوروبا سنة ١١٤٨م رداً على استيلاء المسلمين على الرها واستعادتها من أيدي الصليبيين. وبدلاً من أن يشن الفرسان القادمون من الغرب اللاتيني هجومهم لاستعادة أول إمارة صليبية في الشرق، إذا بهم يشنون هجمة

حرقاء على دمشق. وانتهت هذه الحماقة بالفشل في دخول المدينة، وآت ثمارها في مجموعة من التهم التي وجهها قادة الحملة الثانية إلى المستوطنين اللاتين بقبول الرشوة لإحباط الحصار حول دمشق. ولكن النتيجة الرئيسية لهذه الحملة كانت ارتقاء دمشق في أيدي نور الدين المقتوحين سنة ١١٥٤ م.

هكذا تم توحيد جبهة الشمال، وتم حشد كافة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية لدعم تماسك هذه الجبهة وصلابتها. وبسبب صلابة وتماسك الجبهة العربية الإسلامية في الشمال اتجه اللاتين جنوباً حيث كان الوقت مناسباً والظروف مواتية لحركتهم. إذ كانت مصر آنذاك بمثابة الرجل المريض على ضفاف النيل، حيث كانت الدولة الفاطمية عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة. فقد توالى تغير الوزراء الذين كانوا هم الحكام الفعليين في البلاد، في إيقاع عدد من الانقلابات والفتن والاغتيالات التي تضمن الوصول إلى الحكم. وفي سنة ١١٥٠ هاجم الصليبيون غزة في إشارة واضحة لاتجاههم إلى مصر، ثم سقطت عسقلان آخر المعاقل الفاطمية في فلسطين سنة ١١٥٣ م. وكان من أهم نتائج الهجوم الصليبي على العريش سنة ١١٦١ م أن أخذت مصر تدفع إتاوة سنوية للصليبيين. وأخيراً جاءت فرصة التدخل والوصول السلمي إلى القاهرة بسبب النزاع بين شاور وضرغام، فقد لجأ أحد الوزيرين المتصارعين إلى طلب مساعدة أمالريك (Amalric) (عموري) ملك بيت المقدس، على حين لجأ الثاني إلى الاستنجاد بنور الدين. وخلال السنوات الست التالية غزا الصليبيون مصر خمس مرات. وكانت هذه فرصة طيبة بالنسبة للصليبيين، الذين كانوا يشدون وقف الخطر المصري إما عن طريق ضم مصر وعقد تحالف معها، أو عن طريق تحييد المصريين على أقل تقدير. ومن ناحية أخرى كان البيزنطيون على استعداد للتعاون مع الصليبيين ضد مصر، بيد أن الصليبيين كانوا يعتقدون أنهم قادرون على تحقيق النصر بمفردهم بحيث يمكنهم أن ينفردوا بشماره

Matt., op.cit, pp. 118 FF.; Michel, op.cit, pp. 346, f, 359-362;)

أنظر أيضاً محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦١م)، ص ١٢ وما بعدها؛ يوشع براور، عالم الصليبيين (ترجمة د. قاسم عبده قاسم ود. محمد خليفة حسن، دار المعارف ١٩٨١) ص ٧٢ - ص ٧٣).

وقد أدى التدخل الصليبي لصالح أحد الوزيرين الفاطميين المتنافسين إلى أن أخذ الوزير الآخر في البحث عن مجيئه، فأرسل يطلب مساعدة نور الدين، كما أسلفنا القول. وجاءت القوات الإسلامية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه. ودار القتال على الأرض المصرية بين المسلمين والصليبيين. واضطر الصليبيون إلى الانسحاب في نهاية المطاف، وإن ظل الاستيلاء على مصر سراباً يجذبهم نحوه بين الحين والحين.

ولم تؤد هذه الحملات الصليبية ضد مصر إلى تقلص الموارد العسكرية والبشرية للمملكة اللاتينية فحسب، وإنما أدى فشلها إلى تغيير خريطة المنطقة العربية، فقد صار أسد الدين شيركوه وزيراً لمصر. وبعد موته سنة ١١٦٩ خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف. ثم اختفت الخلافة الفاطمية من الوجود سنة ١١٧١م وعادت مصر مرة أخرى تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية. بيد أن توحيد الجبهة العربية الإسلامية لم يتحقق سوى بعد خضوع سوريا والعراق للجيش المصري بقيادة صلاح الدين. وبعد أن استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ بدأ يدغم قوته استعداداً للمواجهة الشاملة مع الصليبيين.

في تلك الأثناء قام الصليبيون بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء، ووصلوا حتى بحيرات منطقة السويس (البردويل حالياً)، كما شنوا غارات أخرى على تيباء في شمال شبه الجزيرة العربية. وحاول رينودي شاتيون Re-noud de Chatillon أن يقتحم البحر الأحمر ويغزو مكة والمدينة لكي يتحكم في حركة التجارة الدولية عبر هذا البحر بين آسيا ومصر عن طريق باب

المنذب. وهاجم بعض الموانئ المصرية والحجازية قبل أن تتمكن سفن الأسطول المصري من مباغتته والقضاء عليه (عن العمليات التي قام بها أمير الكرك في البحر الأحمر وهزيمته أنظر العماد الكاتب الأصفهاني، سنا البرق الشامي (تحقيق الدكتور فتحة النبراوي، مكتبة الخانجي ١٩٧٩)، ص ٢١٢ - ص ٢١٣).

كانت قمة انتصارات صلاح الدين وجيوشه في حطين (٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/ ٤ يوليو ١١٨٧م حيث تبدد الجيش الصليبي بأسره. (عن هذه المعركة الحاسمة في تاريخ المواجهة ألفت بعض الكتب العربية في زمن صلاح الدين أشهرها: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو، سيرة صلاح الدين. وهي من تأليف بهاء الدين بن شداد الذي كان شاهد عيان بحكم كونه من أقرب معاوني صلاح الدين. وقد قام على نشرها وتحقيقها الدكتور جمال الدين الشيال، سنة ١٩٦٤، وكذلك كتاب: الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الكاتب الأصفهاني الذي كان من المقربين إلى صلاح الدين وشهد معاركه بنفسه، وقد حققها ونشرها محمد محمود صبح ١٩٦٥، وللمؤرخ نفسه كتاب سنا البرق الشامي الذي يعد من أهم مصادر تاريخ صلاح الدين وقد أشرنا إليه قبلاً). أما ما حدث بعد هزيمة الصليبيين في حطين فكان شيئاً أشبه باستعراض عسكري منه بحملات عسكرية؛ فقد أخذت المدن والقلاع والحصون تفتح أبوابها تباعاً أمام جيوش صلاح الدين. وفي أكتوبر سنة ١١٨٧م أي بعد ثمانية وثمانين عاماً من السيادة اللاتينية، عادت مدينة بيت المقدس مدينة إسلامية مرة أخرى. ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع المتناثرة.

وجاء رد الفعل الأوربي تجاه سقوط بيت المقدس وغيرها من المعاقل الصليبية متمثلاً في الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة ملوك أوربيين

كبارهم: فردريك الأول ببروسا ملك ألمانيا الذي قاد القوات الألمانية وهو في السبعين من عمره، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، أما ريتشارد ملك إنجلترا، والذي كان قائداً للجيش الأنجلو-نورمانية والأكويتانية، فقد كان أبرز القادة الثلاثة، واشتهر باسم ريتشارد قلب الأسد. وعلى الرغم من هذا فإن هذه الحملة لم تنجح سوى في استرداد عكا بعد معارك مضيئة وعنيفة.

وعندها بدأ المعسكران الإسلامي والصليبي يحسان بوطأة النفقات الهائلة مالياً، والاستنزاف في الموارد البشرية. لقد كانت موارد صلاح الدين الأيوبي المالية والبشرية آخذة في التدهور، كما أن المحاربين في جيوشه الهائلة بدأوا يعزبون عن تحملهم من طول فترة الحرب؛ ومن ثم عقد الطرفان هدنة في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. بيد أن وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٥م أدت إلى تفسخ دولته بسرعة، فقد كان هذا الرجل هو الذي يحفظها من التفسخ، كما لم يكن ثمة مبدأ متوارث، أو تناسق داخلي يشد أطراف مملكته الشاسعة إلى بعضها البعض. وساد التوتر بين الورثة من أبناء البيت الأيوبي بحيث تمتعت المملكة اللاتينية على أرض الشام بالسلام لفترة تقرب من عشر سنوات.

كان واضحاً أن قوات الصليبيين لم تكن نداءً للمسلمين، ومن ثم انعقد أمل المملكة الصليبية على قدوم حملة كبرى جديدة تفتح لهم مجالاً للتوسع، وبعد عدة تقلبات جاءت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة، لكي تفتح فضلاً جديداً في تاريخ الصليبيين. إذ كان الهدف الرئيسي لهذه الحملة هو مصر. فقد كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط من دلتا النيل بدلاً من ضفاف نهر الأردن؛ وأهم هذه الأسباب، هو الرغبة الجارحة من جانب المدن التجارية الإيطالية (الممول الرئيسي للحملة) في السيطرة على السوق التجارية الرئيسية في حوض المتوسط وضرب المنافسة

المصرية القوية ، أما السبب الثاني فكان نابعاً من المذهب السياسي/العسكري الجديد للصليبيين، والذي كان يرى في القضاء على مصر، أو تخييدها على الأقل، ضماناً للوجود الاستعماري الاستيطاني الصليبي . حقاً لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يقصد الصليبيون فيها غزو مصر، أو ضمها للأملاك اللاتينية . ولكن بينما كان الهدف الرئيسي من حملات أمالريك (عموري) في القرن الثاني عشر هو ضم مصر أو تحويلها إلى دولة تابعة لمملكة بيت المقدس، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد الشرف العسكري والهبة للذين فقدتها المملكة اللاتينية فوق تراب حطين . وكان في ظن الصليبيين أن تحقيق انتصار ضخم على مصر سوف يضمن خضوعها، ويجبرها على الدخول في معاهدة سلام تشترط عودة المملكة الصليبية إلى حدودها القديمة . وفي سنة ١٢١٩م استولت الحملة الخامسة على دمياط، ثم انتظر الغزاة عاماً كاملاً ليبدأوا الزحف صوب القاهرة . وحين فشلت المفاوضات فرضت الحرب نفسها، وقطع الجيش المصري، والتعزيزات التي تلقاها من الشام، الطريق بين الجيش الصليبي ومؤخرته في دمياط . . . واضطر الصليبيون إلى التخلي عن أحلامهم في مصر ثمناً لحريتهم . وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة .

وعلى الرغم من كل شيء تجمعت حملة صليبية جديدة بقيادة فردريك الثاني الذي كان يحمل لقب ملك بيت المقدس بعد زواجه من إيزابيلا ابنة حنا برين . ولكن فردريك كان صقلياً أولاً وأخيراً، أي أن الإسلام بالنسبة له لم يكن مجرد كتاب مغلق؛ فضلاً عن أن المسلمين في نظره لم يكونوا مجرد قوم من الكفار الذين يستحقون الفناء . وقد نجح فردريك بفضل المشاكل التي كان السلطان الكامل الأيوبي يواجهها في الشام ومصر، في عقد اتفاقية معه، كان أهم شروطها أن تعود القدس إلى الصليبيين . لقد كان من حسن طالع الصليبيين أن شهدت هذه الفترة تمزق الجبهة العربية الإسلامية من جديد .

وفي الوقت نفسه كانت طبول الحرب التترية يتردد صداها في المنطقة، واقتربت قعقة حوافر الخيول المغولية من المنطقة حين تحالف الصليبيون والأيوبيون في دمشق ضد الأيوبيين في مصر. واستعان المصريون بالخوارزميين الذين كانوا قد تحولوا إلى مرتزقة يبيعون سيوفهم لخدمة حكام الشرق الإسلامي بعد أن قضى المغول على دولتهم في المناطق القريبة من البحر الأسود. وفي المعركة التي دارت بالقرب من غزة لقي الصليبيون هزيمة قاسية على أيدي المصريين والخوارزميين. وفي سنة ١٢٤٤م استعاد الخوارزمية مدينة بيت المقدس لتظل مدينة عربية حتى العدوان الصهيوني عليها في العصر الحديث.

وكانت آخر حملة صليبية كبرى هي تلك التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ضد مصر سنة ١٢٤٨م، وانتهت بكارثة راح ضحيتها الجيش الصليبي كله، وأسر الملك لويس نفسه في دار ابن لقمان بالمنصورة. واضطر الصليبيون إلى الرحيل مقابل فدية كبيرة للمكهم وأسراهم الكثيرين بلغت حوالي مليون قطعة ذهبية.

ومنذ ذلك الحين صمّت أوروبا آذانها أمام كل نداء جاءها من الصليبيين في الشرق طلباً للمساعدة. وفي تلك الأثناء، ولدت سلطنة المماليك في مصر والشام، والتي كانت الإفراز السياسي الكبير للحروب الصليبية، ويعتبر السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لهذه الدولة؛ فبعد القضاء على الخطر المغولي في بلاد الشام، ومطاردته إلى العراق وفارس، أحاط المصريون ببقايا مملكة الصليبيين من كل اتجاه. ولم يعد بوسع أوروبا أن تقدم شيئاً لمساعدة الصليبيين في الشرق، فقد كانت فكرة الحروب الصليبية قد انتهت في أوروبا، ولم يكن الواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في أوروبا آنذاك ليفرز أية حملات جديدة. وأخذ الوجود الصليبي يتلاشى رويداً رويداً؛ فتم الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٨٦م،

وطرابلس ١٢٨٩م، ثم سقطت عكا في ١٨ مايو سنة ١٢٩١م. وكانت هذه هي النهاية؛ ففي أغسطس سنة ١٢٩١م هجر الفرسان الداوية قلعة الحج التي كانت أعظم القلاع الصليبية. وكان هذا هو فصل الختام بالنسبة للعدوان الاستيطاني على الأرض العربية، وإن لم يكن نهاية لعدوان الصليبيين الذي استمر في العصور الوسطى المتأخرة انطلاقاً من قواعدهم في قبرص ورودس حتى قضى سلاطين المماليك عليهم.

هذه هي الخطوط العريضة للمواجهة الطويلة المضنية ضد الوجود الصليبي، وعدوانه المستمر على الأرض العربية. وقد آثرنا عرضها على هذه الصورة لكي نوضح مدى تأثير هذه المعارك العديدة على الموارد البشرية للمنطقة التي دارت هذه المعارك على أرضها. ويضيق بنا المقام عن تتبع أعداد الجيوش الإسلامية طوال هذه المواجهة؛ ومن ثم فإننا نسترشد بجيوش صلاح الدين الأيوبي التي جمعها في معركة حطين، كمثال على ما كانت المعارك ضد الصليبيين تستنزفه من الموارد البشرية للمنطقة العربية.

لقد بلغ عدد القوات النظامية الإسلامية التي اشتركت في معركة حطين تحت قيادة صلاح الدين إثني عشر ألف فارس موزعة على النحو التالي: ألف فارس من الحرس السلطاني الخاص، وأربعة آلاف من العسكر المصري، وألف من عسكر دمشق، وألف أخرى من عسكر حلب وشمال الشام، فضلاً عن خمسة آلاف فارس من عسكر الجزيرة والموصل وديار بكر. وإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن ثمة قوات أخرى تخلفت في المناطق التي وفدت منها هذه الجيوش لحماية القلاع والحصون والحدود، أدركنا مدى ضخامة الأداة العمكرية الإسلامية التي تم حشدتها في مواجهة القوات الصليبية قبيل معركة حطين (عن هذا الموضوع أنظر العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٧٦ - ص ٨٠؛ سنا البرق الشامي، ص ٢٩٥ - ص ٢٩٨؛ ابن شداد، سيرة صلاح الدين،

ص ٧٥ - ص ٧٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٧٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٥٠. وعن أعداد جيوش صلاح الدين بوجه عام أنظر هاملتون أ. ر. جب، صلاح الدين الأيوبي - دراسات في التاريخ الإسلامي (حررها يوسف إيبش) المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٣م، ص ١٥٤ - ص ١٧٨).

كان هذا حجم قوات الفرسان النظامية فقط. بيد أننا إذا وضعنا في حساباتنا طريقة تكوين الجيوش الإسلامية (وغيرها) في ذلك الزمان، أمكننا أن نقرب أكثر من حقيقة حجم الجيوش التي استخدمها صلاح الدين في حطين. فمن المعلوم أن قوات الفرسان بتسليحها القوي كانت تمثل القوة الضاربة التي يمكنها حسم المعركة في ميدان القتال، إذ كان تأثير الفارس المدرع، آنذاك، أشبه بتأثير الدبابة في الحروب الحديثة. ومع هذا فإن الفرسان والقوات النظامية لم تكن تمثل كل الجيش، وإنما وجدت إلى جانب هذه القوات النظامية قوات مساعدة من المرتزقة، والعربان، والقوات المحلية التي كانت تدعم الجيوش بالحيلة الخفيفة والمشاة والقوات التي تشبه وحدات المهندسين في الجيوش الحديثة. ففي جيوش صلاح الدين كان التركمان، ولا سيما من قبيلة الياروقي، يشكلون قسماً كبيراً من القوات المساعدة التي تتألف من المرتزقة، كما كان بعض الأكراد يساهمون في تشكيل هذه القوات المساعدة إلى جانب بني جلدتهم العاملين في القوات النظامية. كذلك فإن أبناء القبائل العربية في بلاد الشام وفي بعض أقاليم مصر، يشكلون جزءاً من القوات الإضافية التي كانت تنضم إلى الجيوش في حالة الحرب (أنظر ما كتبه المقرئزي عن أعداد الفرسان من عرب بني جذام العاملين في خدمة جيش صلاح الدين في مصر، الخطط، ج ١، ص ٨٦). وتحدثنا مصادر تلك الفترة كثيراً عن «الأجناد» الذين كانوا يشكلون القوات المحلية على ما نرجح، وكانت هذه القوات المحلية التي تشبه الحرس الوطني الحديث، تعتمد في قتالها على الرمح والسيف بشكل

أساسي (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٦٩؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، ص ٢٥٨). وإلى جانب هؤلاء وأولئك وجدت القوات الأخرى من المتطوعين أو «المطوعة» على حد تعبير مصادر تلك الفترة. وكثيراً ما سجلت هذه المصادر التاريخية أن عدد أولئك المتطوعين كان يفوق أعداد الجيوش النظامية. ويغلب على الظن أن هؤلاء كانوا يندرجون ضمن قوات المشاة في الجيش. والواضح أن قوات المشاة كانت تلعب دوراً رئيسياً في حالات الحصار، هجوماً أو دفاعاً. وكانت تضم عدداً من أصحاب الحرف والصناع مثل «الحجارين»، و«النقابين»، و«الخراسانية» والجاندرية وغيرهم ممن تنوعت مهامهم أثناء الحصار (ذكر العماد الأصفهاني بعض هؤلاء في حديثه عن حصار حصن صهيون، الفتح القسي، ص ٢٤١ - ص ٢٤٣).

ولأن جيوش ذلك الزمان لم تعرف أسلحة الخدمات والتموين وما شاكلها من الجيوش الحديثة، فقد كانت الجيوش تخرج وفي ركبها التجار وأرباب الحرف والصناعات، فتقام الأسواق المؤقتة حيث يشتري الجنود لوازمهم، ويمجدون من يقدم لهم الخدمات اليومية الأخرى.

هذه العناصر كلها كانت تشكل الجيوش التي تخرج للقتال. وبطبيعة الحال، كانت تمثل عبئاً كبيراً على الموارد البشرية للبلاد التي خرجت منها. وإذا ما تأملنا أعداد الجيوش التي خرجت من المنطقة العربية طوال فترة الوجود الصليبي، أدركنا مدى الخلل الذي أصاب البناء السكاني في هذه المناطق. كما أن الحروب نفسها كانت تتسبب في هجرات داخلية أو خارجية، وإلى تفرغ مناطق معينة من سكانها وتكدسهم في منطقة أخرى، كما أوضحنا من قبل. ونسوق مثلاً على هذا، ما حدث في مصر والشام عقب قيام دولة سلاطين المماليك. فقد دفعت الحروب الصليبية الكثيرة والمتعددة، وما نتج عنها من تخريب لاقتصاد بلاد الشام، بالكثيرين إلى

الهجرة إلى مصر التي زاد سكانها زيادة ملحوظة آنذاك. (أنظر قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨١م)، ص ٣٣ - ص ٣٥؛ أنظر كذلك E.Ashtor, A social and economic history of the Near East in the Middle Ages (London, 1976) pp. 286-291).

أما التأثير الاجتماعي للحروب الصليبية على المجتمع العربي، فقد بدا واضحاً بعد فترة قليلة من نجاح الحركة الاستيطانية الصليبية، ولم يلبث أن اتخذ شكله النهائي بعد انحسار موجة الغزو اللاتيني للأرض العربية. ولعل أبرز هذه المؤثرات هو إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية على أساس إقطاعي بحث. ذلك أن نظام الجيش الإسلامي الباكر كان قائماً على أساس إيديولوجي يرتكز على الجهاد كفرض عين على كل مسلم قادر عليه. ومن ثم كان الجيش الإسلامي في عهده الأولى، يتخذ من الجهاد فلسفة وعقيدة يتم على أساسها تعبئة كل القادرين للعمل في الجيش، أي أن الجيش كان قائماً على مبدأ الشعب تحت السلاح Folk-in-arms على حد التعبير الحديث. بيد أن التطورات السياسية والاجتماعية والإدارية الناجمة عن توسع الدولة الإسلامية، واستيعابها لعناصر جديدة من الشعوب التي دخلت الإسلام، أدت إلى تطورات أخرى على الصعيد العسكري. ومنذ ذلك الحين بدأت العناصر الفارسية ثم التركية، تلعب دوراً هاماً في الحياة العسكرية، كما بدأ النظام الإقطاعي فضفاضاً غير محدد الملامح والأبعاد. وبدأت التطورات تأخذ مجراها صوب تكريس النظام الإقطاعي كأساس لبناء الجيوش الإسلامية. فإذا ما جاءت الحروب الصليبية، وما تطلبت من تعبئة شاملة، أثبت النظام العسكري القديم فشله. وبدأ قادة حركة الجهاد الإسلامي على محور الموصل - حلب من الزنكيين، يعيدون تكوين قواتهم العسكرية النظامية على أساس إقطاعي خالص، بمعنى تخصيص مساحة من الأرض الزراعية لأحد الأمراء، بحيث يقدم في مقابلها عدداً من الرجال وكمية من العتاد. وفي عصر نور الدين محمود كانت هذه الإقطاعات وراثية، كما كانت

هناك سجلات تبين عدد الرجال والعتاد الذين كان على كل أمير من الأمراء التابعين لنور الدين محمود أن يقدمهم. ويبدو أن صلاح الدين قد سار على نهج نور الدين، وأبقى الخاصية الوراثية للإقطاعات كما كانت زمن نور الدين. ومن الواضح أن الاقطاعات زمن صلاح الدين، لم تقتصر على الأرض الزراعية فحسب، وإنما كانت هناك هبات عينية ورواتب نقدية دورية عرفت باسم «الجامكية». ويبدو أن الجامكية في العصر الأيوبي، كانت وفقاً على من لا يملكون إقطاعاً. (أنظر ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ٣٠٨؛ ابن عمّار، قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطية)، ص ٣٥٤ - ص ٣٥٥؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الروضتين، ج ١، ص ٢١٩؛ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٦٥؛ هاملتون جب، صلاح الدين، ص ١٥٧ - ص ١٥٩).

وخلال العصر الأيوبي، الذي اتسم بكونه عصراً عسكري الطابع، جرت عدة تطورات على النظام الإقطاعي حتى اكتمل بشكله الذي عرفه عصر سلاطين المماليك. فقد قام الجيش المملوكي على أساس من العلاقات الإقطاعية المتدرج في سلم ثابت؛ إذ كان السلطان يمنح المملوك الذي يكتمل تدريبه ويدخل في زمرة الفرسان إقطاعاً من الأرض الزراعية تتزايد مساحته بشكل طردي مع ترقّي الأمير المملوكي من «أمير عشرة» إلى «أمير مائة»، ثم «أمير ألف» أو غيرها من الرتب العسكرية الكبيرة. وكان الأمراء الكبار يملكون جيوشاً صغيرة يعولونها من إقطاعاتهم. ومنذ عصر السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» (النصف الأول من القرن الرابع عشر) خضع النظام الإقطاعي المملوكي لتطورات جوهرية. والجدير بالذكر أن العلاقات الإقطاعية في بلاد الشام ومصر تحت حكم سلاطين المماليك، كانت تختلف تمام الاختلاف عن العلاقات الإقطاعية في الغرب الأوربي، عشية الحروب الصليبية، وأثناءها، وبعد نهايتها. ففي فرنسا، مثلاً، كان ثمة سلم إقطاعي من السيادة والتبعية الإقطاعية (Vassalage) يكون القن أدناه،

ويكون الملك قمته. وبذلك نجد سادة إقطاعيين في هذا السلم يدينون في الوقت نفسه بالتبعية لسادة أعلى منهم، مما كان يخلق مشكلة ولاء الفصل الإقطاعي، وهل تكون لسيده الأعلى (قمة السلم الإقطاعي) أم تكون لسيده المباشر؟ أما في دولة سلاطين المماليك (التي كانت الإفراز السياسي للحروب الصليبية)، فكانت تبعية الجميع للسلطان الذي كان بمثابة السيد الإقطاعي الأعلى والمباشر في الوقت نفسه. وفي هذا العصر فقد الإقطاع صفته الوراثية. وبينما تحول الإقطاع في أوروبا إلى إقطاع وراثي؛ مما مكن لقيام أسرار إقطاعية قوية تاوأت الملكيات وسلبتها من حقوقها السياسية، وسلطاتها القضائية والمالية الشيء الكثير، فإن الإقطاع في عصر سلاطين المماليك، والذي بدأ وراثياً في أصله الأيوبي، ما لبث أن تحول إلى إقطاع شخصي بحت، وللسلطان وحده حق منحه أو انتزاعه؛ مما أدى إلى عدم قيام أسرار إقطاعية وراثية قوية على نحو ما حدث في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى. (أنظر حول هذا الموضوع: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٦ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ٣٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٩ ص ٤٣؛ ابن الصيرفي، إنباء المصر بأنباء العصر، ص ٢٣ - ص ٢٤، ص ٣٣ - ص ٣٤؛ ابن أبياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى)، ج ٣، ص ٢٠ - ص ٢٢، ص ٢٣، ص ٣٧. عن الإقطاع في فرنسا العصور الوسطى أنظر Norman F. Cantor, The Medieval History (New York 1969) pp. 203-223 أنظر عن الإقطاع المملوكي سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٤٨ - ٥٢؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٩ - ص ٢٣؛ (Ashtor, op.cit., pp. 283FF.).

وكان من الطبيعي في ظل النظام الإقطاعي المملوكي أن يكون المجتمع الخاضع لحكم سلاطين المماليك مجتمعاً طبقياً في علاقاته واتجاهاته

بشكل عام، وهو الأمر الذي انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة المصرية والشامية آنذاك. بيد أننا يجب أن نضع في اعتبارنا حقيقتين هامتين؛ أولاهما أن الخاصية المتميزة لكل من بلاد الشام ومصر، جعلت طابع الحياة المصرية الاجتماعية يختلف عن الحياة الشامية الاجتماعية، على الرغم من أن الاتجاه الاجتماعي العام في كل من البلدين كان طابعاً إقطاعياً. والحقيقة الثانية أن سُنَّة التطور التاريخي جعلت شكل الحياة الاجتماعية في بداية عصر الحروب الصليبية يختلف عنه، بالضرورة، في نهايتها، سواء في مصر أو في الشام. ويجدر بنا أن نشير إلى أن دراسة الحياة الاجتماعية في منطقة مثل بلاد الشام، بشكل غمطي، أمر غاية في الصعوبة، بل ويكاد يكون ضرباً من ضروب المحال. والسبب في ذلك هو ذلك التنوع المحير في عناصر السكان، سواء من ناحية العنصر، أو من ناحية الديانة أو المذهب؛ مما يخلق بدوره تنوعاً مماثلاً في الأغطاط الاجتماعية وقيم وسلوكيات وأخلاقيات كل جماعة. فضلاً عن أن التنوع التضاريسي والمناخي لبلاد الشام، والأسس المختلفة لاقتصاديات المناطق الجبلية والسهلية والساحلية والصحراوية، ترك أثراً لا يستهان به في شكل العلاقات الاجتماعية، على الرغم من أن الدولة المملوكية التي حكمت هذه المناطق، اعتمدت على النظام الإقطاعي كدعامة أساسية من دعائم الحكم.

وعلى الرغم من هذه المحاذير، فإننا نستطيع القول بأن البناء الطبقي في المجتمع العربي الإسلامي الذي خضع لحكم سلاطين المماليك، يندرج تحت وصف ابن خلدون بأنه «سلطان ورعية». (المقدمة، ص ١٨٣) ويعني هذا أن المجتمع انقسم إلى طبقتين رئيسيتين: الحاكم، والرعية. أي أن السلطان وجهازه الحاكم بجناحيه العسكري والمدني كانوا يشكلون طبقة، على حين كان أبناء الرعية بشق طوائفهم، يشكلون طبقة أخرى أدنى. وبينما كانت الطبقة المحكومة تكد وتكدح وتنتج، كانت الطبقة الحاكمة تستأثر بنتاج عمل المحكومين الذين لا يترك لهم سوى الفتات. ومع تسليمنا بوجود

الفوارق التي تفصل بين الشرائح الاجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين، فإن واقع المجتمع في مصر والشام آنذاك يشي بأن كلا منهما عاشت حياتها معزول عن الأخرى. ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة؛ فإن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام الذين أفرزتهم ظروف العالم العربي الإسلامي في مواجهة الصليبيين (ثم مواجهة المغول الذين كان خطرهم أقل لأنهم سرعان ما ذابوا في العالم العربي الإسلامي، كما أنهم لم يكونوا يشكلون تحدياً حضارياً مثل التحدي الصليبي). وكان على الرعية أن تقدم ثمار عملها إلى الحاكم، على حين لم تكن حكومة المماليك تلتزم تجاه رعاياها بمسؤوليات عامة في مجالات الصحة والتعليم والتغذية... وغيرها.

كان هذا هو تأثير الحروب الصليبية على البنية الطبقية للمجتمع العربي الإسلامي. ومن الواضح أن هذا الجانب يرتبط بنتائج أخرى سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية أتت بها الحروب الصليبية. والواقع أن الأسباب والنتائج في الحروب الصليبية (كما هي في أية ظاهرة تاريخية أخرى) ترتبط ببعضها البعض وتشابك بحيث يستحيل أن نعالجها بشكل يفصل بين كل جانب والآخر. وعلى أية حال، فإن التأثيرات الاجتماعية للحروب الصليبية لم تتوقف عند حد إعادة صياغة علاقات القوى الاجتماعية صياغة إقطاعية، وإنما تعدت ذلك إلى المثل والقيم وأخلاقيات المجتمع من ناحية، والعلاقات بين الطوائف المختلفة داخل المجتمع من ناحية أخرى.

وفما يتعلق بالتأثير الذي تركته الحروب الصليبية على مُثل المجتمع العربي وأخلاقياته، فإنه ينبغي أن ننبه إلى أن هذه الحروب الطويلة المرهقة، كانت مثل أية حروب أخرى من حيث تأثيراتها السلبية على المجتمع الذي يخوض أبنائه غمار هذه الحرب. والناظر في التراث الأدبي لتلك الفترة يسترعي نظره للوهلة الأولى بعض القيم والأخلاقيات والمثل الاجتماعية

التي دارت حولها أشكال الإبداع الأدبي من ناحية، كما يسترعي انتباهه شيوع ألوان من الأدب لم تكن معروفة على نطاق واسع قبل عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى. ومن المسلم به أن النتائج والآثار السلبية التي تنجم عن الحروب لا تظهر فجأة، كما أنها لا تختفي وتزول بانتهاء هذه الحروب، وإنما تتخذ لنفسها شكل تيار إجتماعي/أخلاقي غير مباشر، ومستمر في الوقت نفسه. ويصدق هذا القول بدرجة كبيرة على المجتمع العربي/الإسلامي أثناء الحروب الصليبية وبعدها.

لقد وقعت أحداث الحملة الصليبية الأولى في زمن كان العالم العربي الإسلامي يعاني من شرور التمزق والتشرذم السياسي، بحيث فشل في تحدي الموجة الصليبية الأولى، على الرغم من موارده الهائلة بشرياً واقتصادياً، ومرت حوالي خمسين سنة قبل أن يفيق المسلمون على حقيقة ما حدث، ويستوعبوا الضربة الأولى ويعيدوا تنظيم أنفسهم لمواجهة طويلة معذبة. هذه الحقيقة كانت لها انعكاساتها على جماهير المسلمين؛ فقد شعروا بمدى عجز الحكام. وامتلأت نفوس الناس في كل مكان بمشاعر الغضب والإحباط والمرارة. وحين أدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاءوا إلى المنطقة العربية ليستوطنوها، شاعت روح من التقوى السلبية والتدين الهروبي الذي هو أقرب ما يكون إلى الرهبة. وبدأت حركة التصوف في الانتشار كملاد من شرور الدنيا التي باتت واضحة من خلال عجز حكام المسلمين وجيوشهم، وهاجر عدد كبير إلى مكة والمدينة قانعين بذلك عوضاً عن متاعب الجهاد. وقد اعتمد صلاح الدين الأيوبي على الصوفية في إذكاء حماسة المقاتلين وفي محاربة التشيع حقاً، ولكن الاتجاه العام للتيار الصوفي أخذ مظهراً سلبياً لم يلبث أن تجلّى بوضوح خلال عصر سلاطين المماليك، حين انقسم الصوفية إلى فرق عديدة، منهم بعض المجاذيب والدراويش الذين اشتهروا بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين (المقريري، الخطط ج ٢، ص ٤٣٢ - ص ٤٣٣؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري،

ص ١٦٢ - ص ١٧٥). وفي تصورنا أن هذه الحركة كانت هي الافراز السلبي للحركة الصليبية. وعلى الرغم من أن جذور التصوف كانت موجودة في المجتمع العربي الإسلامي قبل ذلك، فإن اتساع نطاقها وانتشارها على هذا النحو، والتدهور الذي شابهها، كان تعبيراً عن مجتمع يعاني من ضغوط حياته اليومية وعدم وجود ما يشده نحو المستقبل. لقد شاعت روح من التدين الجاهل في أوروبا قبل الحروب الصليبية وأثناءها، بيد أن البابوية التي كانت نتاجاً لحركة الإصلاح الجريجورياني، نجحت في توجيه هذا التدين الذي انتشر بين العلمانيين صوب حركة عسكرية موجهة ضد المسلمين، وهو الأمر الذي كان من أهم أسباب نجاح الحركة الصليبية في أطوارها الأولى. وعلى الجانب الآخر كانت الحركة الهروبية التي اتخذت لنفسها رداء الدين ومسوح الصوفية في العالم الإسلامي، من أهم أسباب النجاح الصليبي في الاستقرار والتوسع خلال السنوات الخمسين الأولى.

ففي هذا العصر الذي شهد أول هزيمة كبرى للمسلمين، شاعت أنباء الرؤى والأحلام التي يرى النائم فيها النبي (عليه الصلاة والسلام)، أو الخضر، أو أحد الأولياء الصالحين. وطقق المسلمون بتأثير ما أصابهم من خطوب الحروب الصليبية ومصائبها، يتكلمون عن القيامة وعلاماتها، كما أخذوا يتناقشون حول الجنة وما فيها من نعيم.

بيد أن الحقيقة التاريخية تقتضي منا القول بأن هذا التيار السلبي قد عارضه تيار إيجابي، كان هو البذرة التي نمت منها شجرة الجهاد. فقد شن عدد من الفقهاء هجومهم القاسي على الصوفية الذين أرادوا أن يصرفوا الناس عن واجب الجهاد ضد الصليبيين. فقد أدان الشيخ تقي الدين بن تيمية المسلمين بأنهم «... قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة...». ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا، فقد أثار تدفق اللاجئين إلى المقاطعات الإسلامية في أعقاب الغزو الصليبي، مشاعر

الاستياء ضد القيادة الإسلامية. وفي البداية علت أصوات الاستياء على منابر المساجد في صلاة الجمعة، وسرعان ما لقيت الحركة تأييداً شعبياً جارفاً جعل من الجهاد ضد الكفار صيحة التجمع للقوات الإسلامية. وحينذاك انقشع الغبار الذي تراكم عبر الأجيال على مفهوم الجهاد، ودبجت الرسائل عن قدسية بيت المقدس. وقامت المدارس والعلماء والفقهاء بخلق مناخ للرأي العام، فرض على الحكام أن يبدأوا الجهاد ضد الصليبيين. ومن هذا الجو برزت قيادة البيت الزنكي ثم البيت الأيوبي ثم سلاطين المماليك، الذين كانوا تمهيداً للدولة العسكرية التي حلت محل الدولة الشوكراطية، كنتاج سياسي للحروب الصليبية.

ومن ناحية أخرى، كانت الحروب استنزافاً للموارد، وجهود الحكام، بحيث صارت الموارد كلها موجهة لخدمة هذا الغرض؛ فلم يكن ثمة اهتمام بالزراعة أو الصناعة، كما أن سلسلة المجاعات والأوبئة الناجمة عن قلة المحصولات الزراعية، في غالب الأحوال، أخلت بالبناء الاجتماعي، بحيث لحق كثيرون بالفقراء والمعدمين الذين فشلوا في ضمان قوت يومهم، على حين ازداد بعض فئات التجار وموظفي الحكومة ثراء من جراء تحكمهم في النظام المالي والضريبي، أو احتكارهم لبعض البضائع ولا سيما الغلال.

ونتيجة لهذا شاعت في المجتمع أخلاقيات الحزن والاستسلام، وانتشرت بينهم روح العجز والاعتقاد في الخرافات والمعجزات، وهو أمر تكشف عنه تلك الطائفة الكبيرة من أخبار المعجزات والخوارق التي تناوها مؤرخو العصر الأيوبي وعصر سلاطين المماليك باعتبارها حقائق تاريخية. ومن ناحية أخرى ظهرت أصداء حال الحزن والاستسلام في أنماط التأليف الأدبي لتلك العصور، ولا سيما الشعر الذي ظهرت فيه قصائد طويلة في غرض جديد هو الاستغاثة بالله والرسول، والتوسل والتضرع برفع المعاناة.

كذلك انتشرت أمراض إجتماعية كثيرة في عصر الحروب الصليبية،

وتجلت كظاهرة اجتماعية خطيرة في عصر سلاطين المماليك. فقد كانت الدعارة من أكثر المهن رواجاً وتنظيماً، وكانت الدولة تتقاضى عن هذا النشاط ضرائب محددة في عصر سلاطين المماليك؛ فقد كانت هناك «ضامنة المغائب» التي تعتبر بمثابة نقيب مسؤول عن نشاط المطربات والمقرئات وبنات الليل، وعليها أن تؤدي للدولة مبلغاً معيناً تتولى جبايته من الخاضعات لإشرافها. كذلك انتشر الشذوذ الجنسي في ذلك العصر بدرجة كبيرة وخطيرة. والشذوذ الجنسي من أخطر الأمراض الاجتماعية، لأنه إذا لم يكن من أسباب الانهيار الاجتماعي، فهو على الأقل من أهم مظاهر هذا الانهيار. ولعل مرجع تفشي هذا المرض الاجتماعي، هو أن القوات الرئيسية في الجيوش الإسلامية كانت تتألف من جيوش تغيب طويلاً في ميادين القتال، كما أنها كانت تشتبك في سلسلة متوالية من الحروب تحول بين أفرادها وبين الاستقرار اللازم لحياة الأسرة. كما أن جزءاً لا بأس به من الجيوش كان من المرتزقة الذين يبيعون سيوفهم للحكام، ويعيشون على المغامرة والحرب بحيث لا يمكنهم الزواج والتألف مع الحياة الأسرية. وكان صدى ذلك هو شيوخ شعر الغزل بالذكر في نتاج العصرين الأيوبي والمملوكي. وإذا كان هذا النوع من شعر الغزل قد عرف في مرحلة سابقة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فالواضح أنه في عصر الحروب الصليبية أمسى غطاً شائعاً من أنماط التأليف الأدبي، على حين كان في الفترة السابقة وقفاً على بعض الشعراء الذين اشتهروا بالخلاعة والمجون مثل أبي نواس. (أنظر عن هذا الموضوع: المقرئزي، السلوك جـ ٢، ص ٦٦١، ص ٦٦٢؛ الخطط، جـ ٢، ص ٣٤، ص ١٦٩؛ السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص ١٠٣ - ص ١٠٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٢٨ - ص ٢٢٩؛ محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، مكتبة مصر ١٩٤٩، ص ٣٤ - ص ٥١).

ومن أهم نتائج الحروب الصليبية على الصعيد الاجتماعي، أنها

زرعت بذور الشك والمرارة في نفوس المسلمين تجاه المسيحيين الذين عاشوا دهرًا طويلًا في كنف المجتمع العربي الإسلامي، وساهموا في بناء الحضارة العربية الإسلامية. وكانت بعض طوائف المسيحيين في بلاد الشام عونًا للصليبيين على المسلمين، ولكن ذلك جعل الحكام والناس ينظرون إلى كافة الطوائف المسيحية نظرة ملؤها الشك والريبة في جميع أرجاء العالم الإسلامي. ففي مصر لم يكن من المتوقع، حين بدأت الحروب الصليبية، أن يمدّ الأقباط يد المساعدة للغزاة اللاتين بسبب الخلافات المذهبية التي أوجدت تراثًا ضخمًا من العداء بين الطرفين. كما أن الأقباط لم يكونوا رجال حرب حتى يمكنهم أن يقدموا مساعدة ذات بال للصليبيين. كذلك عانى الأقباط من احتلال الصليبيين لبيت المقدس حين منعوهم من الحج باعتبارهم هراطقة، وتحولت الكنائس القبطية إلى كنائس لاتينية في المرات التي احتل فيها الصليبيون دمياط، كما أنهم خربوا الكنائس القبطية في هجماتهم المتكررة على مصر. وعلى الرغم من هذا، فإن حقيقة أن البعض تعاون مع الصليبيين، أو تعاطف معهم، كما تشير بعض المصادر في حديثها عن حملة لويس التاسع على مصر، وحقيقة تخوف السلطات الحاكمة من اتصال المسيحيين المحليين بالصليبيين على نحو ما حدث في بلاد الشام، ثم الأهوال التي ارتكبها الصليبيون الذين حاربوا باسم المسيحية - كل هذا أوجد في العالم الإسلامي كله مشاعر تفيض بالمرارة ضد المسيحيين، تولدت عنها في بعض الأحيان ردود فعل عنيفة. والحق أن الحروب الصليبية لم تفعل شيئًا للمسيحيين المصيرين سوى استنفار مشاعر الكراهية ضدهم وزرع بذور عدم الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين. (قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ٩٠ - ص ٩٤؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٤ - ص ١٢٢٥؛ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ١٠٦ - ص ١٠٧، وما بعدها؛ Atiya, A.S., The Crusades in the Later Middle Ages (London 1938) pp. 359-369).

أما في بلاد الشام، فإنه من بين الطوائف المسيحية الكثيرة التي وجدت في هذه البلاد، لم تكن هناك طائفة أقرب إلى الصليبيين من الطائفة المارونية. لقد كانت هذه الطائفة أشبه بقطعة من التاريخ ترسبت في وديان لبنان وجباله، إذ كان أفرادها يعتنقون إحدى العقائد الكثيرة التي مزقت الكنيسة المسيحية في القرن السابع. وفي سنة ١١٨٤ تقبل المارونيون الخضوع لسيادة روما، ومن خلال عصر الحروب الصليبية كانت هذه الطائفة مصدر خطر كبير على المسلمين والعرب طوال عصر الحروب الصليبية، فقد كان بوسعهم تجنيد أربعين ألف مقاتل لمساعدة الصليبيين. والحقيقة أن فترة الحروب الصليبية كانت هي العصر الذهبي للموارنة، فقد ازدادت أعداد كنائسهم وأديرتهم، ونعموا بحماية الصليبيين لهم. (أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، (القاهرة ١٩٧٧م)، ص ٦٢ - ص ٦٤)؛ محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد (دار المعارف ١٩٧٩م)، ص ٨٨ - ص ٩٢؛ علي السيد علي؛ المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٧٩م)، ص ٣٣ - ص ٣٥؛ أنظر أيضاً، William of Tyre (English translation), II, pp. 459 F., Cahen, C. la Syrie du Nord à L'époque des Croisades (Paris 1940), pp. 192-193).

وعلى الرغم من أن غالبية المسيحيين الشرقيين في بلاد الشام، قد عانوا من الاحتلال الصليبي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين، فإن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والمسيحيين قد تأثرت بالوجود الصليبي بشكل مباشر. حقيقة أن بعض المسيحيين الشرقيين قد حاربوا الصليبيين، كما أن الفرنج اللاتين قد استولوا على كثير من الكنائس الشرقية وحولوها إلى كنائس كاثوليكية، ولكن تبقى الحقيقة القائلة بأن العلاقات بين العناصر المسلمة والمسيحية في مجتمع بلاد الشام لم تعد إلى سابق عهدها، حيث كان

المسيحيون قبل عصر الحروب الصليبية ينعمون بالتسامح كأهل ذمة في رحاب المجتمع الإسلامي. وربما كان للحماسة الدينية التي تأججت في صدور المسلمين، بفعل الدعوة للجهاد، أثرها في المضايقات التي تعرض لها مسيحيو الشام في فترة الحروب الصليبية. وفي عصر سلاطين المماليك زاد معدل الاضطهاد ضد المسيحيين وغيرهم بسبب طبيعة الحكم المملوكي، وحرص السلاطين على اتخاذ صورة المدافعين عن الإسلام من ناحية، وبسبب المعارك الضارية التي خاضها السلاطين ضد الصليبيين حتى قضوا عليهم في بلاد الشام، ثم في قبرص ورودس من ناحية أخرى.

ومن ناحية أخرى، أدت الحروب الصليبية إلى اختلال علاقات القوى الاجتماعية في بعض المناطق؛ إذ تحول المسلمون إلى أقليات في بعض المناطق نتيجة للهجرات الضخمة التي نتجت عن المذابح والأهوال التي أعقبت الغزو الصليبي، كما أن بعض المسلمين قد آثروا الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية خوفاً على حياتهم، مثلما حدث في جزاعة التي أعلن قاضيهما اعتناقه للمسيحية وتبعه في ذلك أربعمائة من المسلمين عقب استيلاء الصليبيين على المدينة. وعلى الرغم من هجرة كثيرين من المسلمين من المناطق التي استولى عليها الصليبيون، فليس هناك شك في أن الأرستقراطية المسلمة والمثقفين المسلمين كانوا غالبية المهاجرين، حيث بقي الفلاحون والمهنيون والتجار. وبعد أن انحسرت موجة المذابح الأولى عاد الكثيرون إلى مواطنهم. بيد أن هذه الجماعات الإسلامية كانت عبارة عن أقليات في وسط مسيحي قوامه المسيحيون المحليون والصليبيون. ولا شك في أن المسلمين وجدوا أنفسهم في موقف حرج كأقلية محتقرة وغير موثوق بها بالنسبة للفرنج، ولكنهم ظلوا مع ذلك يعملون في المزارع والصناعات والتاجر داخل المناطق الصليبية.

لقد كان الريف كله مسلماً، إذ استمرت المجتمعات القروية

الإسلامية كما هي تحت الحكم الصليبي، كما بقيت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هي، على الرغم من أن الدولة الإسلامية كانت قد فقدت سيادتها وسطوتها. وتركزت الحياة في القرى حول المساجد الصغيرة، واستمر القضاء والفقهاء يباشرون خدماتهم الدينية وغير الدينية، لأنه لم يكن ممكناً الاستغناء عنهم في شؤون الميراث والزواج؛ أما علاقة أهل الريف المسلمين بالصليبيين فكانت علاقة المُستَغَلِّ بالمُستَغَلِّ.

ويرجع السبب في ذلك إلى طبيعة الكيان الصليبي الذي يضم أقلية من المستوطنين وسط محيط بشري معادٍ. كانت موارد الصليبيين البشرية ضئيلة للغاية، وكانت تلك هي مشكلتهم الكبرى. وفي الوقت نفسه، تعين عليهم أن يعيشوا في حال مواجهة وترقب وحذر دائمة، مما فرض عليهم توظيف كل القادرين على القتال في خدمة الغرض العسكري. ومن ثم ظلت الأقليات الإسلامية في المناطق الصليبية، تقوم بعمليات الإنتاج الزراعية والصناعية، فضلاً عن دورهم الهام في المبادلات التجارية. بل إن الصليبيين استعانوا ببعض المسلمين للعمل كقوات مساعدة في جيوشهم، وهو أمر يتمشى مع التقاليد العسكرية التي كانت تسمح باستخدام المرتزقة في جيوش ذلك الزمان. ومن المهم أن نشير أن هذه الأقليات الإسلامية كانت تكنّ مشاعر العداء والكراهية للصليبيين، وكان المسلمون في المناطق الصليبية يقومون بما يمكن أن نضعه في عداد أعمال المقاومة، على حد تعبيرنا المعاصر، فقد ذكر أسامة بن منقذ (الاعتبار، ص ٨٢) أن المسلمين من سكان ريف عكا، كانوا يخفون الأسرى المسلمين ويعملون على وصولهم إلى المناطق الإسلامية سراً. وتحفل مصادر عصر الحروب الصليبية بكثير من الأمثلة التي تؤكد ما ذهبنا إليه. ومن الطبيعي أن يتمسك أبناء الأقليات الإسلامية في الأقاليم الخاضعة للصليبيين بهويتهم الحضارية وشخصيتهم الاجتماعية في مواجهة الكثرة الصليبية/المسيحية (يوشع براور، عالم الصليبيين، ص ٩٨ - ص ١٠٠؛ علي السيد علي، المجتمع المسيحي،

ص ٤٧ - ص ٥٠؛ علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية (القاهرة ١٩٧٦م)، ص ٣٤١؛ ابن جبير، ص ٢٧٦ - ص ٢٧٩، ص ٢٩١).

وإذا كنا قد أشرنا إلى التأثيرات السكانية والاجتماعية للحروب الصليبية، فإننا ينبغي أن نتناول التأثيرات السياسية لهذه الحروب، مع تسليمنا بأن التأثيرات الناجمة عن الحروب الصليبية تتداخل مع بعضها البعض في علاقة سببية متشابكة، بدرجة يصعب معها فصل الأسباب عن النتائج، وبحيث يصعب تحديد أيها أسبق في الوجود، وأيها كان سبباً في حدوث الآخر أو نتيجة له. ولكن هذا لا يمنع من أن يكون العامل السياسي بارزاً في أحد مستويات المعالجة، بحيث يكون محور البحث الأساسي. على حين يكون العامل الاقتصادي هو المحور الرئيسي في مستوى آخر، ويكون العامل الاجتماعي محوراً رئيسياً في مستوى ثالث. . . وهكذا.

على أية حال، فإن التأثيرات السياسية تبرز واضحة جلية في اختفاء الخلافة الفاطمية من الوجود، كنتيجة مباشرة للصراع الإسلامي/الصليبي، على الرغم من تسليمنا بأن عوامل التدهور والاضمحلال كانت تنخر في كيان هذه الخلافة قبل الحروب الصليبية. كما تتجلى هذه التأثيرات السياسية في تدهور الخلافة العباسية بحيث اختفى أي دور فعال لها في المواجهة الصليبية، على حين ذابت قوى السلاجقة، حماة الخلافة، في الموجات الصليبية الأولى. وفي تصورنا أن الحروب الصليبية قد أنهت وجود الدولة الشيوقراطية التي يقودها خليفة ذو سلطة روحية (كما كان حال الخلافة العباسية المتأخرة والخلافة الفاطمية، على الرغم من النشاط العسكري لكل من الخلافتين) لتحل محلها الدولة العسكرية الطابع التي يقودها قائد عسكري محارب من طراز صلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس وأمثالها من سلاطين الأيوبيين والمماليك. لقد كانت الدولة الأيوبية ذات الطابع العسكري البحت، والدولة المملوكية التي جاءت استمراراً لها، هي نتاج

السياسي الرئيسي للحروب الصليبية... ورب قائل بأن الدولة العربية الإسلامية منذ بدايتها، كانت دولة ذات نشاط عسكري واسع، وأن الخلفاء الأمويين كانوا غالباً قادة عسكريين، كما أن الدولة الأيوبية والدولة المملوكية لم تخل من الجانب الروحي، وهذا أمر حقيقي. ولكن النظرة الفاحصة تكشف عن أن الدولة العربية الإسلامية الباكرة كانت في حال صعودها تشيد الحضارة العربية الإسلامية، وكان النشاط العسكري جانباً هاماً من جوانب هذا النشاط، بيد أنه لم يكن هو الأساس الذي قامت عليه مؤسسات الدولة وعلاقات الحاكم بالمحكوم، وإنما قامت هذه المؤسسات والعلاقات على أساس أن الخليفة هو الإمام الأكبر الذي يخلف الرسول (عليه الصلاة والسلام) في حفظ الدين وتنظيم علاقات الأمة. ولكن العدوان الصليبي (إلى جانب كثير من عوامل الإنهاك الداخلي الأخرى) أثبت أن هذه القيادة السياسية الروحية لا تكفي لحماية العالم العربي الإسلامي؛ ومن ثم برزت الدولة العسكرية التي يقودها محارب قوي يستند إلى واجهة من التأيد الشرعي من الخلافة. وفي هذه الدولة تمت صياغة العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أساس توجيهها صوب العمل العسكري دفاعاً عن دار الإسلام.

حقيقة أن الخلافة العباسية لم تسقط بنفس السرعة التي سقطت بها الخلافة الفاطمية وظلت موجودة حتى قضى عليها الهجوم المغولي سنة ٦٥٨هـ، ولكنها كانت قد فقدت أي وجود حقيقي فعال لوجودها، كما أن السلاجقة الذين كانوا يمثلون القوة الضاربة لهذه الخلافة، قد ذابوا في خضم الصراع ضد الموجات الصليبية الأولى، بحيث لم يبق لهذه الخلافة سوى ظل باهت من مجد غابر وسيادة ماضية، فإذا ما طرقها جيوش المغول سقطت في سرعة تتفق وحقيقة خواتمها الداخلي.

لقد بدأت الخلافة العباسية منحني تدهورها منذ فترة طويلة. وبدأ

ضعف الخلافة واضحاً من خلال تلك الكثرة من الحركات الثورية الداخلية التي أنهكت موارد الدولة مثل حركة «بابك الخرمي» وثورة الزنج، وثورة القرامطة التي هزت أركان الخلافة طوال القرن التاسع الميلادي. وفي القرن العاشر صار الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأمراء الأتراك، بل إن كبيرهم الذي اتخذ لقب «أمير الأمراء» بات هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة. وفي غضون القرنين العاشر والحادي عشر برزت النتائج السياسية لضعف الدولة العباسية من خلال الحركات الانفصالية، وقيام الأسرات الحاكمة المستقلة في الشرق والغرب.

ومن ناحية أخرى، نجح الفاطميون في سنة ٩٦٩م في الاستيلاء على مصر، وبذلك صارت هناك خلافة شيعية منافسة عاصمتها القاهرة، ونفوذهما يمتد على مساحة كبيرة من الأرض العربية في الشرق. وعلى مدى قرنين من الزمان (٩٦٩ - ١١٧١م) ظل العالم الإسلامي نهياً للنزاع بين القاهرة الشيعية وبغداد السنية. وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر بلغ الصراع بين الخلافتين ذروته؛ إذ حاول كل من الخلافتين القضاء على الخلافة الأخرى. وحين أيد الفاطميون جهود «البساسيري» الذي أعلن خضوع بغداد للخليفة الفاطمي في القاهرة، استنجد الخليفة القائم بأمر الله العباسي بطغرل بك زعيم السلاجقة الذي دخل بغداد في سنة ١٠٥٥م، حيث استقبل استقبال الفاتحين، وقضى على حركة البساسيري وقتله؛ وبذلك حل السلاجقة السنيون محل البويهيين الشيعة في الوصاية على الخلافة العباسية. وهكذا صار الخليفة العباسي مجرد حاكم روحي ورمز ديني، على حين صار السلطان السلجوقي هو الحاكم العلماني الفعلي للدولة العباسية (أنظر: ابن ميسر، أخبار مصر (نشره هنري ماسيه. القاهرة ١٩١٩)، ج ٢، ص ٨؛ ابن العديم، زبدة الطلب من تاريخ حلب (تحقيق سامي الدهان. دمشق ١٩٥٤)، ج ١، ص ٢٧٥؛ المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٥؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١١ - ص ١٢؛

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧؛ جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، ص ٩٨ - ص ١٠٠؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٧٨ - ص ٨١).

وقد استطاع أولئك السلاجقة أن يستولوا على كثير من الأملاك البيزنطية، ثم توجوا انتصاراتهم بتدمير الجيش البيزنطي وأسر الامبراطور رومانوس الرابع الذي كان يقود الجيش بنفسه في معركة مانزكرت (ملازكرد) سنة ١٠٧١م. ومنذ ذلك الحين كان السلاجقة هم القوة الإسلامية النشطة التي استطاعت أن تستولي على معظم أملاك بيزنطة. ولكن وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه جاءت إيذاناً بتفكك الامبراطورية الشاسعة الأرجاء التي بناها السلاجقة؛ وإذا ما حلت سنة ١٠٩٦م كانت إمبراطورية السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك سلجوقية متنافسة، ثم ما لبث التنافس أن أدى إلى تدهور نفوذ السلاجقة وسلطانهم.

وعند قدوم الحملة الصليبية الأولى كانت إمبراطورية سلاجقة فارس قد دخلت في سلسلة طويلة من النزاع والحروب الأهلية، وقد ساعد هذا الموقف على نجاح هذه الحملة بسبب الموقف السلبي الذي اتخذته السلطان برقياروق تجاه الغزو الصليبي. وقد ذاب السلاجقة في أحداث الفترة الصليبية المبكرة تاركين الخلافة العباسية تمضي في طريقها المحتوم (أنظر حول هذا الموضوع: ابن العديم، زبدة الطلب، ج ٢، ص ١٧٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٩٦ - ص ٥١٠؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٥ - ص ١٨٧؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ١١٣ - ص ١٢٠؛ عبد الغني محمود عبد العاطي، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور اليكسيوس كومنين (رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة المنصورة ١٩٨١م)، ص ١٦٨ - ص ١٧٦؛

(Fadil, S.M., The decline of the Saljuki empire, Calcutta 1938 p. 104.

أما الخلافة الفاطمية فيتمثل فشل قادتها الأكبر تجاه الصليبيين في أنهم لم يفهموا حقيقة الغزو الصليبي، ولم يروا فيه سوى أداة تمكنهم من سحق السلاجقة الذين كانوا الأداة العسكرية للخلافة العباسية. وفي رأي بعض الباحثين أن الامبراطور أليكسيوس كومنين نصح قادة الجيوش الصليبية، حين التقوا به في القسطنطينية، أن يتحالفوا مع الفاطميين ليكونوا عوناً لهم ضد السلاجقة. ويبدو أن الصليبيين قد أخذوا بنصيحة الإمبراطور البيزنطي فأرسلوا سفارة إلى القاهرة أثناء حصارهم ليقية. ومن ناحية أخرى كان الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي، صاحب السلطة الفعلية في مصر آنذاك، يعتقد أن الجيوش الصليبية إنما جاءت إلى الشرق لمساعدة الإمبراطور البيزنطي. وفكر من ناحيته في إقامة نوع من التحالف مع قادة هذه الجيوش لتقسيم بلاد الشام بين الفاطميين والصليبيين بحيث تكون أنطاكية هي خط التقسيم. وفي أثناء حصار أنطاكية في بداية سنة ١٠٩٨م، استقبل الصليبيون سفارة فاطمية تعرض عليهم مشروع التقسيم باسم الخلافة الفاطمية. ولكن هذا المشروع الذي كان يناقض الأهداف الصليبية، والذي كان يكشف في الوقت نفسه عن قصور الوعي السياسي لدى الفاطميين لم يؤد سوى إلى إدراك الصليبيين لمدى التمزق السياسي والمذهبي الذي يعاني منه العالم الإسلامي. وقد عبر ابن الأثير عن وجهة نظر فريق من المسلمين جعلهم التصرف الفاطمي يعتقدون أن الفاطميين هم الذين استدعوا الفرنج لكي يقيموا في بلاد الشام دولة حاجزة بين الفاطميين والسلاجقة المدافعين عن الخلافة العباسية.

وبعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أنطاكية، بدأت حقيقة نواياهم تتكشف أمام الخلافة الفاطمية، فقد طردوا السفارة الفاطمية من أنطاكية، وأعلنوا أنهم في الطريق إلى بيت المقدس. بل إن فكرة غزو مصر وإخضاعها للسيادة الصليبية راودت أحلام قادة الحملة الأولى، ففقدوا مجلساً حريياً في الرملة طرحوا فيه مشروع غزو مصر، ولكن ضالة الجيش

الصلبيي حالت دونهم والقيام بهذه المجازفة (أنظر:

Anonymos, Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem (ed. R. Hill, London 1962) pp. 37-38; Archive de l'Orient Latin, Tom.I, pp. 162-163; Robert the Monk, Historia Hierosolimitana, RHC, Hist. Occ.III, Paris 1866, pp. 791-792; Runciman, A hist. of the Crusade, New York 1964), vol.I, pp. 229-230, p. 267, p. 279.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٧٣ - ٢٨٣؛ ابن ميسر، أخبار مصر، ج ٢، ص ٣٨؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥).

وفي ٧ يونيو سنة ١٠٩٩م بدأ الحصار الصليبي لمدينة بيت المقدس، وفي منتصف يوليو من السنة نفسها تمكنت القوات الصليبية من اقتحام المدينة. وسالت دماء المدافعين عن المدينة وسكانها في المذبحة الرهيبة التي ارتكبتها السيوف الصليبية، ومع الدماء التي أريقت، أريقت الأوهام الفاطمية عن التحالف مع الفرنج ضد السلاجقة. وعلى الرغم من أن الفاطميين جردوا جيوشاً كبيرة وأساطيل قوية في حملات متتالية بفضل موارد مصر الكبيرة، فإن الفشل كان دائماً من نصيب الجهود الفاطمية بسبب التفسخ والانهيار الداخلي في مصر آنذاك.

لقد كانت الخلافة الفاطمية آنذاك أشبه بالرجل المريض القابع على ضفاف النيل؛ إذ أضاع الوزراء الفاطميون هيبة الخلافة الفاطمية على تراب الشام إبان معاركهم الفاشلة ضد الصليبيين، كما بددوا كل ما تبقى لهذه الخلافة التعسة من ظلال قوتها الغاربة في مناساتهم ومؤامراتهم التي جرت في إيقاع سريع من الانقلابات والفتن المسلحة والاعتيالات التي كان هدفها كرسى الوزارة حيث يجلس الحاكم الفعلي لدولة الخلافة. واستثمر الصليبيون متاعب الخلافة فاتجهوا بأطماعهم جنوباً صوب مصر بعد أن أنقعتهم جبهة الموصل / حلب بعدم جدوى محاولة التقدم شمالاً. وكان تقدم

الجيوش الصليبية إلى غزة الواقعة على مشارف الصحراء إشارة إلى الاتجاه الصليبي نحو مصر. ثم حدث أيضاً الهجوم على العريش سنة ١١٦١م، مما اضطر مصر إلى التعهد بدفع إتاوة سنوية للصليبيين. ومات بلدوين الثالث في العام التالي، وتولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه أموري الأول Amalric I، دون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من الأموال التي تعهدت بها.

وعلى الجانب الآخر كانت أحوال الخلافة الفاطمية قد ازدادت سوءاً بمقتل الوزير ابن رزيق هو وابنه وصار شاور حاكم الصعيد وزيراً، ولكن حاجبه ضرغام لم يلبث أن عزله من الوزارة. ثم استنجد شاور بنور الدين الذي أرسل معه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه بعد فترة من التردد، وحين علم ضرغام بذلك أرسل يستنجد بأموري ملك بيت المقدس الذي بعث حملة صليبية لهذا الغرض وجهتها القاهرة؛ وهكذا عمد كل من المتنافسين على الوزارة إلى اللعب بالنار التي التهمت كلياً منها في نهاية الأمر، كما كانت هذه النار نفسها التي أضاعت سبيل بروز صلاح الدين لقيادة الدولة ذات الطابع العسكري التي تولت مهمة التصدي للعدوان الصليبي والقضاء عليه. ومن الأمور المثيرة للسخرية أن شاور حين استعاد مركزه بمقتل ضرغام استنجد بالصليبيين ضد قوات أسد الدين شيركوه. ولكن الأمر انتهى بمقتل شاور، وتولى شيركوه الوزارة في مصر.

ولكن القصة التي دارت فصولها فوق الأرض المصرية بين القوات الصليبية والقوات الإسلامية النورية، انتهت بفشل ذريع للصليبيين. لقد فكروا في ضم مصر إلى أملاكهم، وهو أمر لم تكن الجماهير المصرية لتقبله، فانتهى الوجود الصليبي في مصر، ولقي أسد الدين شيركوه تأييداً شعبياً متزايداً. ثم اضطر الصليبيون إلى الانسحاب، وإن ظل حكم مصر سراباً يجذبهم بين آونة وأخرى. هذه الأحداث أدت إلى نتيجتين هامتين تماماً: أولاهما تقليص الموارد العسكرية والمالية للمملكة اللاتينية، وثانيتهما تغيير

خريطة المنطقة. إذ أنه بوفاة شيركوه سنة ١١٦٩م، خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي في الوزارة، وبعد عامين توفي الخليفة العاضد، واختفت الخلافة الفاطمية من مسرح الصراع ضد الوجود الصليبي.

هكذا كانت نهاية الخلافة الفاطمية نتيجة مباشرة للعدوان الصليبي الذي استنفذ مواردها العسكرية والمالية، بعد أن كشف عن مدى فشلها السياسي، ثم جاءت المعارك في قلب الخلافة الفاطمية لتزيد من تدهورها وتقضي عليها. حقيقة أن الخلافة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة التدهور قبل قدوم الصليبيين، لأسباب أخرى عديدة، ولكن العدوان الصليبي، وموجبات الصراع ضده، كان هو السبب الرئيسي في نهاية الخلافة الفاطمية. وجاءت هذه النهاية لتفصح المجال لقيام دولة عسكرية الطابع والأهداف والمقاصد، تتخذ من أرض مصر والشام مرتكزاً لها، وتتخذ من هدف القضاء على الوجود الصليبي محوراً لفلسفتها وإيديولوجيتها. والمتأمل في تاريخ المنطقة في هذه الحقبة الزمنية التي تمتد منذ ظهور صلاح الدين الأيوبي حتى نهاية دولة سلاطين المماليك سنة ١٥١٧م، يشعر أن الدولة العسكرية الطابع التي قادها الأيوبيون ثم المماليك، كانت إفرازاً سياسياً للحروب الصليبية بمعنى أن مهمتها التاريخية الرئيسية كانت هي القضاء على الصليبيين في بلاد الشام، ثم القضاء على فلولهم في جزر البحر المتوسط في آخريات العصور الوسطى.

أما الخلافة العباسية، فقد أنهكت الحروب الصليبية موارد آخر المدافعين عنها، وذابوا في خضم الصراع ضد الموجات الصليبية الأولى. وإذا كانت الخلافة العباسية قد ظلت قائمة حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر حين أسقطها المغول، فإن وجودها كان وجوداً رمزياً للغاية، كما أن بعدها الجغرافي عن مسرح الصراع، وعدم خطورها على توازن القوى في المنطقة، لم يعرضها لمثل ما تعرضت له الخلافة الفاطمية التي كانت داخلة في

لب الصراع. بيد أن بقاء الخلافة العباسية لم يكن يعني صلاحية دولة الخلافة لقيادة الجهود الإسلامية في التصدي لعدوان مسيحيي الغرب. وإنما كان الشكل الأمثل للدولة التي تقود هذه الجهود هو شكل الدولة العسكرية، والتي يقودها ملك محارب من نمط صلاح الدين الأيوبي. حقيقة أن الأيوبيين حرصوا على تأكيد ولائهم للخلافة العباسية، كما أن المماليك أعادوا إحياء هذه الخلافة في القاهرة، ولكن ذلك كان بهدف سياسي هو إضفاء الشرعية على حكمهم في نظر المعاصرين، وليس بوازع من اعتقادهم بأن الخلافة العباسية تمثل قوة هامة يمكنها حسم الصراع لصالحهم.

لقد كان صلاح الدين الأيوبي، بطل التاريخ الإسلامي، زعيماً وقائداً عسكرياً، كما كان رجل دولة موهوباً. وكان يجسد الأخلاق الإسلامية في عيون المسلمين؛ ومن ثم كان هو الزعيم المثالي للحرب المقدسة ضد «الكفار». وحاول الصليبيون، بالتنسيق مع قوى المعارضة في مصر، أن يحيكوا خيوط مؤامرة تطيح بصلاح الدين، ولكنهم باءوا بفشل ذريع. كما أنهم قاموا بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء ووصلوا إلى بحيرات منطقة السويس. وقام رينودي شاتيلون (أرناط) Renaud de Chatillon، حاكم الكرك في شرق الأردن، بمحاولة لاقتحام البحر الأحمر وغزو مكة والمدينة بهدف التحكم في حركة المرور الدولية بين مصر وآسيا عن طريق باب المنذب. وفي سنة ١١٨٢م بنى أسطولاً في قلعة الكرك الصحراوية، ونقله مفككاً على ظهور الجمال مسافة تقرب من خمسة وعشرين ميلاً إلى خليج العقبة، حيث تم تركيبه، وإنزاله إلى مياه البحر الأحمر. وقام هذا الأسطول بنهب عدد من الموانئ المصرية والحجازية قبل أن يفاجئه الأسطول المصري ويقضي عليه.

ولم يبدأ صلاح الدين هجومه الكبير على المملكة اللاتينية في فلسطين، قبل توحيد الجبهة الإسلامية. وعندما استولى على حلب سنة

١١٨٣م بدأ استعداداته للمواجهة الشاملة مع الصليبيين. ومن المهم أن نلاحظ هنا أن قوات صلاح الدين الأيوبي كانت تختلف عن قوات سلفه نور الدين محمود اختلافاً يبنياً من حيث نوعية المقاتلين، وطريقة إعالة الجيوش. فقد كانت نسبة الأكراد في جيوش صلاح الدين نسبة كبيرة، على حين قلت نسبة المماليك. فقد كانت قوات نور الدين وسائر الحكام الزنكيين قائمة على ركيزة من المماليك الأتراك الذين احترفوا الجندية ومنحوا ولاءهم الشخصي لقائدهم المباشر، دون مراعاة للمصالح العامة للدولة التي يخدمون في جيشها. ولأن هذه الجيوش كانت من المرتزقة محترفي القتال الذين انتزعوا من مواطنهم للدفاع عن أماكن أخرى بعيدة، فقد لزم أن ينعموا بحياة رغيدة أثناء فترات السلم وتجهيز راق أثناء الحرب، مما جعل نفقات تجهيز مثل هذه الجيوش باهظة بالقدر الذي استوجب أن تكون أعدادها قليلة. أما صلاح الدين فقد شعر، نتيجة للظروف التاريخية التي أحاطت بصعود نجمه السياسي، أن مسؤوليته الأولى هي تعزيز القوات المحلية في مصر لحمايتها من الخطر الخارجي ولردء الفتن الداخلية. وحين توفي نور الدين، تصرف صلاح الدين باعتباره وريثه، واستولى على أملاكه في الشام والجزيرة وتركزت جهوده في إنشاء سلطة عسكرية مركزية في هذه البلاد. وقد لعبت شخصية صلاح الدين دوراً حاسماً في كسب ولاء جميع الفرق العسكرية ذات الأصول العرقية المختلفة مما كبت المنازعات والمنافسات المعتادة بينها. ومن ناحية ثانية قامت دولة صلاح الدين الأيوبي في أساسها، على أساس حربي، ووزعت مهام مستويات الحكم المختلفة على أساس من الالتزامات العسكرية؛ فقد تولى أفراد عائلته حكومات الأقاليم بشرط المساهمة في نفقات الجهاد والحرب، والإبقاء على جيوشهم في حال استعداد دائم للتزول إلى ميدان القتال، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وفي يوم ملتهب من أيام الصيف، ٤ يوليو سنة ١١٨٧م، دارت معركة حطين حيث وقع الصليبيون في كمين في سهل مغلق في قرون

حطين. وتبدد الجيش الصليبي عن بكرة أبيه بين قتيل وأسير. وكان هذا الجيش يمثل كل القوة العسكرية المتاحة للمملكة اللاتينية، مما أدى إلى أن تكون الأعمال العسكرية التي أعقبت حطين، أشبه ما تكون باستعراض عسكري منها بحملة قتال؛ إذ فتحت المدن الصليبية أبوابها الواحدة تلو الأخرى أمام صلاح الدين وجيوشه. وفي الثاني من أكتوبر من السنة نفسها؛ أي بعد ثمانية وثمانين عاماً من السيادة المسيحية، استسلمت مدينة بيت المقدس للمسلمين. وبعدها بشهور قليلة تقلصت المساحة الصليبية على خريطة بلاد الشام فاقتصرت على صور، وأنطاكية، وطرابلس وبعض القلاع المتناثرة، وبدا واضحاً أن الساعة الأخيرة في عمر المملكة الصليبية قد حانت.

لقد قامت شهرة صلاح الدين الأيوبي على إنجازاته العسكرية التي تجسدت في معركة حطين، وفي استرداد مدينة بيت المقدس. وبفضل إنجازاته العسكرية ضد الوجود الصليبي اكتسب صلاح الدين صفته الثانية كمؤسس لأسرة حاكمة، فقد كانت هذه الانجازات العسكرية هي الأساس الذي قامت عليه الدولة الأيوبية العسكرية الطابع والهدف والتنظيم، وخير دليل على ذلك ما أورده أبو شامة (الروضتين، ج ٢، ص ١٧٧) على لسان صلاح الدين بقلم القاضى الفاضل «... فقد أنفق المولى [صلاح الدين] مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل...». هذه العبارة البسيطة تجسد الحقيقة القائلة بأن الدولة التي خرجت من طيات الصراع الذي قاده صلاح الدين ضد الصليبيين، كانت دولة ذات طابع حربي صرف، بحيث تركز كل مواردها لخدمة الهدف العسكري وهو التصدي للعدوان الصليبي.

وفي أثناء حياته، كان صلاح الدين قد وزع الولايات التي ضمها إلى إمبراطوريته على أفراد أسرته الذين منحهم سلطات السيادة الفعلية. ولكن

الأساس الذي كان يربط هذه الولايات جميعاً بالسلطة المركزية، هو الأساس العسكري الذي يعني أن يقوم كل منهم بتقديم العون العسكري ضد الفرنج. وحين توفي صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣م، استقلت كل إمارة من إمارات البيت الأيوبي بنفسها، وانغمست هذه الإمارات في صراعات سطحية أبرزت نوعاً من الفرقة الظاهرية بين أبناء البيت الأيوبي. بيد أن الكيان الأيوبي في حقيقة الأمر، محكم الترابط في أجزائه. ويبدو استقرار الحكم الأيوبي من خلال الحقيقة القائلة بأن الكيان الذي أوجده صلاح الدين، بقي مستمراً في مؤسسات دولة سلاطين المماليك بعد زوال الحكم الأيوبي. ويتجلى استقرار الحكم الأيوبي كذلك من خلال الازدهار المادي في مصر والشام، بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها الأيوبيون لتشجيع الزراعة والتجارة وسائر وجوه النشاط الاقتصادي، ومن خلال فترات السلم التي سادت العلاقة بين الأيوبيين والصليبيين. كذلك كان يظهر في كل جيل من الأيوبيين، شخص يتمتع بصفات الزعامة التي تجعله الشخصية الرئيسية بين الأيوبيين، ليفرض سلطانه الأدبي على الجميع الذين كانوا يتأزرون في مواجهة الخطر الصليبي أو غيره من الأخطار.

وكما كان ظهور دولة الأيوبيين نتاجاً للإنجاز العسكري لمؤسس دولتهم في الصراع ضد الفرنج الصليبيين، كانت نهاية دولتهم مقترنة بحملة صليبية أخرى، كانت مصر مسرحها هذه المرة. ومن خلال الصراع ضد الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع، برز المماليك باعتبارهم القوة الوحيدة القادرة على الدفاع عن العالم الإسلامي، وقامت دولتهم العسكرية امتداداً لدولة بني أيوب العسكرية في مؤسساتها وبنياتها الإقطاعي العسكري، ونظمها الإدارية والمالية.

وبعد السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩م) المسؤول عن ازدياد نفوذ المماليك على

النحو الذي أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته، ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد، علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة، ولهذا اشترى عدداً كبيراً من هؤلاء المماليك الذين دربهم ليكونوا غالبية جيشه. وكان هؤلاء المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك والمغول والصقالية والأسبان والألمان والجراسكة... وغيرهم. إلا أن غالبيتهم في عصر دولة سلاطين المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القنجاك والقوقاز، على حين كانت غالبيتهم في الدولة الثانية من الجراسكة.

وجاء العدوان الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك في الدفاع عن العالم الإسلامي. فقد كانت للخطة التي وضعها بيبرس البندقداري ونفذها فرسان المماليك في شوارع المنصورة، أثرها الفعال في هزيمة جيش الصليبيين، ثم استطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماماً على الجيش الصليبي وأسر لويس التاسع نفسه. وفي خضم الصراع ضد الصليبيين توفي السلطان الصالح، وقامت زوجته وأمتة السابقة شجرة الدر بإدارة شؤون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك. وحين تولى توران شاه العرش، اصطدم بطموح شجرة الدر من ناحية، وبقوة المماليك من ناحية أخرى. وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأسوي مروع؛ ثم تولت العرش شجرة الدر، أول سلاطين المماليك.

هكذا، إذن، كانت الدولة المملوكية استجابة لظروف العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حين كان المسلمون يتعرضون للهجوم من الغرب اللاتيني والشرق المغولي في آن واحد. وفي الوقت الذي كانت قوات لويس التاسع تخوض مياه المتوسط قبالة دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان الشرق الإسلامي، وهي تقترب من عاصمة الخلافة العباسية بغداد.

لقد كان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك، وإذا كان بعض المؤرخين يرى أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات، فيما بين معركة المنصورة ٦٤٧هـ (١٢٥٠م) ومعركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م)، فإننا نرى أن معركة عين جالوت بنتائجها الحاسمة كانت تأكيداً للندور الذي اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي. (عن قيام دولة سلاطين المماليك أنظر: قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٩ - ص ٣١؛ جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية (دار المعارف ١٩٦٧)، ج ٢، ص ١٧١ - ص ١٧٢؛ محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص ١٤٥ - ص ٢٠١؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٩٨ - ص ٢٢١).

وكان لا بد لنظام الحكم في هذه الدولة أن يعتمد على نظام الإقطاع العسكري الذي كان امتداداً لما كان سائداً في العصر الأيوبي. فقد كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذي يعتمد عليه في تدعيم سلطته، أو في الصراع ضد الآخرين. وفي حالة الحرب الخارجية يتم تجميع هذه الجيوش مع القوات المساعدة والمتطوعين. ولما كانت الاقطاعات هي الوسيلة الوحيدة لإعالة هذه الجيوش الصغيرة، فقد قسمت الأرض الزراعية بين أمراء المماليك وسلطانهم.

وفي سنة ١٢٦٠ كان السلطان الظاهر بيبرس هو الرجل الحاكم في مصر، وهو قائد ممتاز ورجل دولة هائل المقدرة، ويعتبر من أعظم حكام العالم الإسلامي آنذاك. إذ استطاع أن يغير مصير المنطقة في أكثر من اتجاه. فمن خلال مطاردة الفلول المغولية أصبح بيبرس سيد بلاد الشام. وأحاط بمملكة الصليبيين من كل اتجاه. وكان من السهل عليه آنذاك أن يدمرها،

ولكن مهام أخرى كانت تشغله عن ذلك مؤقتاً. فعلى الرغم من انتصاراته، كان المغول ما يزالون يشكلون خطراً حقيقياً. ومرة أخرى أطلق المسلمون شعار الجهاد ضد المغول، كما حاول بيبرس تكوين حلف إسلامي يضم مغول القرن الذهبي على شواطئ البحر الأسود. ومن المهم أن نشير إلى أن المغول، على الرغم من الضجة التي أحدثوها في التاريخ، لم يكونوا خطراً حقيقياً على العالم الإسلامي، نظراً لانحطاط مستواهم الحضاري بالنسبة للعالم الإسلامي، فضلاً عن ديانتهم الوثنية التي تجعل منهم أرضاً جاهزة لانتشار الإسلام. ومصدّق ذلك أنهم ما لبثوا بعد جيل أو جيلين أن اعتنقوا الإسلام وذابوا في رحاب الحضارة العربية الإسلامية. ولكن الأمر كان يختلف بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يشكلون تحدياً حضارياً يهدد الوجود الإسلامي ذاته.

على أية حال، فإن بيبرس لم يلبث أن هاجم الممتلكات الصليبية، ونجحت ثلاث حملات قصيرة فيما بين سنة ١٢٦٣ - ١٢٦٦م في حرمان الصليبيين من صفد ومن قلاع أخرى في الجليل. كما استولى على قيصرية وأبرسوف ليحدد مساحة الشريط الضيق الذي قامت عليه مملكة بيت المقدس، وتم عزل مدن الساحل الصليبية عن بعضها البعض حين استولى المسلمون على المناطق الواقعة فيما بينها. وبدأ في الأفق أن ثمة حرباً جديدة صليبية سوف تدور رحاها، وتستخدم رؤوس الجسور الصليبية لكي تشن حرباً استردادية ضد المسلمين. وبالفعل بدأ لويس التاسع في تجهيز حملة كبيرة، ولكنها اتجهت إلى تونس. ويقال إن الملك لويس كان يردد كلمة «القدس» بصوت خفيض وهو على فراش الموت. بيد أن فكرة الحروب الصليبية كانت قد انتهت. أما محاولات جيمس ملك أرغونة، الذي وصل إلى منتصف الطريق إلى القدس، فكانت مجرد جزء من قانون الفروسية أكثر من كونها محاولات لشن حرب صليبية قادرة على تغيير الموقف. وينسحب هذا الكلام أيضاً على محاولات إدوارد الأول ملك إنجلترا.

وانتقل تاج مملكة بيت المقدس لآل لوزينان في قبرص، ولكن جهودهم المخلصة لم تغير شيئاً من الموقف. وأخذ الوجود الصليبي يتلاشى شيئاً فشيئاً، فتم الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٨٦م، ثم طرابلس سنة ١٢٨٩م، وأخيراً سقطت عكا آخر الحصون الصليبية الكبيرة في ١٨ مايو ١٢٩١ على يد قوات المماليك بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وكانت تلك هي النهاية، ففي أغسطس من العام نفسه، هجر الداوية قلعة الحج، أكبر القلاع الصليبية، وكان ذلك هو فصل الختام في قصة الوجود الصليبي على أرض الشرق.